الفصل الرابع

مارشال هول

١٦ سبتمبر ١٨٥٨ – ٢٣ فبراير ١٩٢٦

"إن عملي وعمل الممثل صنوان، غير أني لا أستعين بمناظر، ولا بكلمات محضرة، ولا بأستار، وإنما أخلق من الحقائق والأحلام في حياة بعض الناس جوًا صالحًا، لأن هذه هي المحاماة"

مارشال هول

obeikandl.com

المحامي الموهوب

هذا رجل إنجليزي كأنه فرنسي، ليس فيه الدم البارد الذي يمتاز به العنصر السكسوني من بين العناصر، ناقض قومه، فأتعبهم وأتعبوه، ولكنهم أحبوه... واختلف مع القضاة ومع الناس ومع مصلحته. فلم يفشل ولم تذهب ريحه، وتحالفت روعة منظره وثورة عاطفته وقدرته على الارتجال على أن تجعل منه أعجوبة في الإنجليز.

ما أصدق قولهم إذ أطلقوا عليه أنه "لابوري إنجلترا" لما كان بين المحامين العظيمين من أسباب التشابه.

كان "فرنان لابوري" في فرنسا بطل قضايا "فايان" و "دريفوس" و "إميل زولا" التي شغلت الفكر العالمي في خاتمة القرن الماضي وفاتحة هذا القرن في إهابة كل خصائص الجنس الفرنسي، واللاتيني، من استجابة للعواطف وقوة انفعال وسرعة تعبير وقوة تصوير. وهي عروض لا تنفق في أسواق الجزر المنعزلة في غربي القاهرة... كأنما استقلت عنها لتتصرف فيها، وفي الدنيا.

لكن نبوغه الخارق، في أمة تصدف عن كل ما هو استثنائي، وتطوي كشحًا، عما يروع ويبهر، جعل منه محاميًا عالميًا، كما جعل من ذاته ومن خطوات حياته، حقائق جديرة بالتعجب.

وفي سنة ١٩٢٣ ظفر بالبراءة لمرجريت فـ... بعد اعترافها بقتل شاب من "ذوات" مصر هو المرحوم عـ.. فـ.. وحملت أسلاك البرق من كل أرجاء المعمورة تهانئ الناس لمارشال هول ومنها تلك البرقية التي وجهها إليه باعثها على أنه "أكبر محام على وجه الأرض"..

لقد كان ألمع نجوم المحاماة في أعلى أمم الأرض حضارة. فلم يك بدعًا أن يقترن مجده بسؤددها وجلاله بجلاله.

بدأ حياته القضائية – كما قال لورد "بركنهد" – "رجلاً يحكم الغريب عنه لو رآه في أي فترة من فترات حياته – حتى في أحلك ساعاته – أنه مقدور له النجاح". حبته العناية الإلهية بسجية هي المحاماة في صميمها، أعني بها الشجاعة. واختصته بنظرة نافذة إلى الأعماق مكنته من فهم الطبيعة الإنسانية والتغلغل في أغوارها، ونفس طبعها الفن بالجليل العالي من مزاياه. فكان رجل الساعة في أفدح القضايا خطرًا. وثمة وجده مواطنوه كما قال "هنري روبير" في مرتبته "لفرنان لابوري" "قوة من قوى الطبيعة، وماردًا في الدفاع" بل كما قال: "لورد بركنهد" عن مارشال هولي" فاجتمع الرأيان وتوافق المصوران كما تطابقت الصورتان "ماردًا بين الرجال، في مخبره وفي مظهره".

ومكن هذه الشهرة الباهرة طول العمر، وعظم الأحداث وتنوعها، من محن شخصية إلى محن غير شخصية، ومن جروح المحاماة إلى قروح في مجلس العموم، ومن ماحم يروع الناس ببوادر القوة التي يحارب بها في قضاياه، إلى محام أكبر روعة وهو يحارب بعد أن حطمته السنون، قعيدًا على كرسي تحيط به أسباب العلاج! أفرطت الصحافة في تمجيده، وأغرقت في التثريب عليه، حتى أوشك الدولاب القوي للرجل العبقري أن يتوقف.

ولما مسه الفرح جاءته المحن تثري، جميعًا، كأنها على ميعاد، فاجتمعت عليه مآس عائلية كأساطير "راسين" و "كورني" و "شكسبير" وهجوم مدير من السلطة الرابعة وهي الصحافة، وخصومات مع السلطة الثالثة التي هي القضاء. وفقدان كرسيه في السلطة الثانية التي هي مجلس العموم. في ظروف خال فيها أعداؤه وأولياؤه أن هامه العالية، وقامته المتطاولة، سنتحنيان: أن كانتا لا تتحطمان، لكن ثغره كان يفتر عن بسمة مشرقة بالأمل، واثقة بالظفر، كما تنفرج السحب عن شمس السماء، وكانت ثقته بذاته تجتذب قلوب الأعداء والأصدقاء على السواء فكانت محنته أكبر أسباب محبته.

ولما خاصم القضاء خاصمه لحساب موكليه وعلى حساب نفسه، فحمل وحده سخط العالم القضائي مضحيًا كل شيء في سبيل المحاماة.

ولما بويع له في "المملكة المتحدة" على أنه كبير محامي العصر لم تكن تلك البيعة لقاء مواهبه القانونية قدر ما كانت جزاء ما فيه من فيوض الإنسانية.

كان جميلاً يحب الجمال، في الزهر، وفي الحلي، وفي لوحات الفن، ملئت حياته كأغلب الفنانين بالعوارض، وبالتناقض، وبالبأساء، فلم تنطفئ جذوته، ولما حان حينه دعاه داعي الردى في إبان نظر الأخيرة من قضاياه، فمات مدججًا بسلاحه.

* * *

ولد السير "إدوارد مارشال هول" في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٥٨ لأب طبيب. كان أبوه محاميًا، فورث من أبيه قريحة مستنيرة في الطب والعقارات أدت له أجل الخدمات وهو في أوج عمله في قضايا السموم، وورث من أمه جمالها فكان رائع المنظر حسن السمت، بائن الطول (ست أقدام وثلاث بوصات).

وتبدت عجائبه منذ حداثته، فهو يذهب إلى مدرسة قسيس فيهوى أخت القسيس، قبل أن يعرف الهوى ويهوى الأسلحة النارية، فتظل درايته بأسرارها عونًا له في قضاياه حتى يموت.

بدأت معركة بالمحكمة يوم خطأ إليها خطواته الأولى في الرابعة من عمره ليشهد مع أبيه قضية سم خطيرة ففتح قلبه منذ ذلك اليوم للوقوف إلى جوار المتهم.

اجتمع في تلك القضية أمران كانا ميدانًا لمعاركة طول حياته وهما السم والجنون: فتاة عزمت أن تدس السم لزوجة طبيب تبغي الزواج منه فمزجت "الاستركنين" بمقادير من الشيكولاته في محل معروف، كانت تبعث في طلبها فتسممها ثم تعيدها معتلة بعدم موافقتها حتى إذا اشتراها المشترون شاع أذاها في الناس فبعدت عنها الشبهة!

لكن سمامها أودت بولد صغير فقدمت المحاكمة ودانها المحلفون، فادعت الحمل حتى لا تعدم، ودعى لفحصها محلفات فيهن طبيب للكشف عليها منظارًا مكبرًا فذهب ضابط فشرى له... منظارًا بحريًا...! معتذرًا بأنه أصغر ما وجد في السوق!

ولما ثبت كذبها انفجرت باكية وانفجرت المحلفات في مقاعدهن باكيات!! وخار ما كانت تحتفظ به في إبان المحاكمة من هدوء وغشيتها غاشية من الهذيان انتهت بإيداعها مستشفى الأمراض العقلية.

وتجلت طبيعة "مارشال هول" كرجل كفاح في براعته في لعبة "الكركت" فصار زعيمًا للفرق أينما حل، وفي الثامنة عشرة وظفه أبوه كاتبًا في شركة. فمكث غير بعيد ثم عاد إلى مدرسته فلم يكد يدرس سنوات حتى انصرف عنها وراح يهيم في مدن العالم. فقضى نحو عام في

الحي اللاتيني بباريس يدرس في مدرسة الدنيا، ويتجر في المجوهرات، يشتريها من باريس ويبيعها في لندن. أو يشتريها من لندن ويبيعها في باريس، واتخذها هواية غدت من بعد دراية، طالما أفاد منها في قضاياه.

وشد رحله إلى سفر بعيد.. إلى استراليا... وعاد عن طريق السويس وجبل طارق، ملآن الذهن بالمعارف، معمور الفؤاد بالتجارب.

ثم عمد إلى دراسة القانون بكمبردج، فقضى عامين وتخرج سنة ١٨٨٢ في الرابعة والعشرين ليبدأ فترة التمرين كمحام مترافع Barrister

والمحامي المترافع، في هذه الأمة التي تعتصم بتقاليدها من أن تشرك العالم، كما تعتصم بأمواج المحيط من الاختلاط بالأمم، لا يتصل بالموكلين. وإنما يتصل بهم المحامي غير المترافع Solicitor. فهذا الأخير يتخذ الإجراءات ويجمع المستندات، أما الأول فهو يصدر الفتوى ويترافع.

وإذا كانت التقاليد القضائية توجب انتخاب القضاة من المترافعين. فإن القضاة يسهرون على صيانة كل ما يميز المترافعين من غير المترافعين.

وبينما نجد المحامي غير المترافع في غالب الأمر شريكًا لجماعة من زملائه في مكتب، نرى المترافعين أرفع من أن يكون لهم شركاء.

المحاماة المترافعة إذن تعتمد كل الاعتماد على المحاماة غير المترافعة، ما دام غير المترافعين هم سبيل المترافعين إلى المتقاضين.

وكثيرًا ما تنتهي القضايا في مكاتب الأولين فلا يبقى للمترافعين إلا ما يصل إلى الجلسات، والإنجليز بطبيعتهم أمة "تسويات" كأفراد وكأمة. وهم أكثر الناس قصدًا ونصفة فيما بينهم... فيهم يصالحون خضوعًا لأحكام مخافة الإجراءات القضائية وما أطولها، بل ما أقصر العقل عن التثبت من عواقبها.

سأل محام شاب رئيس محكمة في فرنسا عن الصلح في الخصومات فأجابه "إن كان حق موكلك قويًا فصالح عليه خصمك! وإن كان ضعيفًا فترافع.." كأنما يقول إن الدعوى المضمونة الكسب فد تخسر فالصلح خير لا تجازف، والمضمونة الخسار قد تكسب والقضاء

مقامرة ففيم لا تجازف...! فالصلح للأولى درء للاحتمال السيء والمرافعة في الثانية مجازفة قد لا تنتهي بتحقيقه..!

وقديمًا اتهم الخصوم أخطب الخطباء "ديموستين" وهم له ظالمون فلاذ بالفرار من سجنه حتى لا يتعرض للمحاكمة، فمن ذا يضمن عواقب المحاكمة؟

قال دورمسون Dormesson وقد طالما حكم بين الناس بالقسطاس "لو اتهمت بسرقة قبة كنيسة نوتردام وسمعت الناس من خلفي ينادون اقبضوا على اللص، فكان أول ما أفعله أن ألوذ بأذيال الفرار..".

تلك سلطات المحامين غير المترافعين على القضايا قبل أن تصل إلى يد المترافعين فإذا وصلتهم لم تخضع كل الخضوع لتصرفهم، إذ هي تصل إليهم بعد أن يجمع المستندات والأوراق المحامي الذي لا يترافع، فترتبط بخط سيره..! هو لا يعدو أن يكون زميلاً... وإن لم يكن هو الذي سيتكلم..

ولقد تكون حقيقة الواقع، أن موكل المحامي المترافع، هو المحامي غير المترافع.

ولا يصير المحامي مترافعًا إلا إذا نجح في امتحان أمام مجلس للدراسات القانونية، مؤلف من أعضاء منتخبين من دور المحاكم الأربع التي يقيد المحامي في جدول واحدة منها، ويحضر دراساتها ثلاث سنين للتمرس بالبحوث العملية في كنف أستاذ مترافع، ولا تمنع التقاليد غير الإنجليز أن يدرسوا هذه الدراسات، أو يحوزوا تلك الامتحانات أو يحترفوا المحاماة.

فإذا نجح المحامي الشاب في الامتحان صار مستشارًا ناشئًا J. C. أي: Junior Council حتى إذا برزت كفاياته في الوسط القضائي سمى مستشار الملك King's Council أو K, C أي محاميًا كبيرًا.

وللمحامين المترافعين جماعات ينضون تحت لوائها.

وللمحامي الإنجليزي كبرياء تقليدية فترى كاتبه يحدد مواعيده. وصلاته بالناس، وتراه لا يتحدث عن الأتعاب وإنما يتحدث الكاتب.

بل إن في ظهر ردائه جيبًا صغيرًا يرمز إلى عادة درج المحامون المترافعون عليها من قديم الزمان أيام كان الموكلون يضعون الأتعاب في ظل المحامي دون أن يراها.. أو يراهم...

أما الكاتب فلا يرقى إلى درجة محام مترافع ولا محام مترافع... وإنما يترقى إلى كاتب قاض.. وهي وظيفة ذات شأن هناك.

* * *

بدأ المحامي الناشئ أعماله في المحاماة.. ولبث غير قليل لا يهبط عليه ذلك الإنسان الملائكي الذي يتراءى للمحامي، بعد قيد اسمه، في شكل موكل، تحت جناحه قضية...! ثم إذا بقضيتين يوكل في كل منهما في مقابل جنية واحد! وانشراح القاضي صدرًا بمواهبه المبشرة، وجاد عليه بكلمة من الكلمات التي لا تكلف القاضي شيئًا وتصنع للمحامي كل شيء، فلم يكد يبرح قاعة الجلسة حتى وكل في نفس اليوم، في قضية بعد ظهر اليوم.. بثمانية جنيهات.

واختص القضايا الجنائية، فكان يترافع في كل قضية، ولكل موكل وفي كل محكمة، فآتاه التنويع في القضايا أعظم الثمرات، وأتيحت له قضية فتى قتل حبيبته بعد أن أسلمت الكرى أجفانها في غرفة استأجرها ليبيتا فيها ليلة القتل، فلما أرادها قصد إلى دار عمته للاعتراف بجريمته وتحرير وصيته.

كانت نظرية "مارشال هول" أنه قتلها في ساعة جنون، لكن المحكمة قضت بإدانته فلم يكد يسمع الحكم حتى مسه طائف من الخيل لم يتخل عنه حتى ألغى الحكم.

وترافع ضد امرأة يقال ولود، قدمت أحد عشر طفلاً للوجود، في سبع عشرة سنة، لكنها ذبحت منهم ذات يوم ثلاث بنات وهن نائمات.

وظفر زميله عنها بالحكم المنشود – وهو عقوبة القتل مع الجنون.

وتعدد ظهوره في مواقف الاتهام في تلك الأيام، مع أن تمثيل الاتهام كان ضد طباعه، ولقد طالما حمد الله إذا جعله يقضي حياته في مواقف الدفاع.

أو كما كتب لأحد أصدقائه "أن الوقوف دائمًا ضد المتهم، مهما قبحت التهم، ينتهي بإهدار العاطفة الإنسانية في الإنسان، ولقد نصحني الأصدقاء بذلك قديمًا فانتصحت وعدلت عن تمثيل الاتهام".

وأدركت الصحافة من ذلك الحين خصائص مرافعته فكتب كاتب أنه "يقاتل بشدة في قضاياه، يقف أحيانًا دون مبالاة، أمام القضاة" وكم كلفه ذلك من العناء!..

عنف قاض شاهدًا لم يتذكر واقعة من الوقائع فصاح "مارشال هول": "عندما أرى أعضاء من الهيئة القضائية. يصنعون هذا الصنيع أظنه فاضحًا".

بل هو لا يرحم المشرع فيقول عن بعض القوانين: "لقد شرعت هذا القانون أغلبية لم توقف إلى نصح".

انتقد قاض سؤالاً له، فأمر بعدم توجيهه قائلاً: أنت تعلم أن توجيه سؤال كهذا عمل معيب جدًا..

فأجاب "عندما يرى الرجل رأيًا ليس من السهل أن يعدل عنه".

قال القاضي: لا تترافع.

قال الأستاذ: سأترافع لأنني أوتيت أجرًا على أن أترافع.

وترافع. وكسب.

وكان القاضي "ماتيو" لا يطيقه – روى "مارشال" أن صديقًا لهما، عرض أن يجمع بينهما، فقصدا إليه في النادي ولبث "مارشال" في الخارج ريثما يتحدث الصديق إلى القاضي ويعود فيصحبه إليه، لكن الصديق كر بعد دقيقة على عقيبه وهو يقول: (لا. لا فائدة. إنه يكرهك).

ترافع يومًا عن فتاة في جريمة حريق فبنى دفاعه على أن اشتعال النار كان "عوارض" لا بفعل فاعل وأنها شبت من "مكواة". وكان "ماتيو" رئيس الجلسة فعارضه، قال مارشال هول: إني رأيت بعيني رأسي نارًا اشتعلت على هذا النحو وأسهمت في إخمادها.

ولقد استبان بعد وجود أعواد ثقاب في كان الحادث، فقال "ماتيو" ترى هل سيقول المستر "مارشال" إن أعواد الثقاب اشتعلت من نفسها...؟ فلعله يعرف أن أعواد ثقاب تشتعل من نفسها إذا نادى عليها وهو في مخدعه!

* * *

ولكن ما لهذا الوجود الإنساني يعلن الحرب شعواء على نوابغه..!

لقد كانت مأساة "مارشال هول" في داره أفدح وأهول من أروع المآسي في قضاياه.. وإذا كان الرجل لا يستطيع أن يكافح في الدنيا العريضة إلا إذا كان مطمئنًا في دنياه الصغيرة، وهي داره، فلقد كانت آية الشجاعة عند هذا الرجل العظيم الشجاعة، أنه وهو يتجرع غصص حياته العائلية، كان يكافح في الخارج ببطولة تسمو على الإطراء.

قال لشبان يومًا، وما كان يتحدث إلا عن نفسه "افتحوا دفترًا للحسنات والسيئات في الحياة. وسجلوا الحسنات بحروف كبيرة في صفحة الدائن. أما المتاعب فقيدوها بحروف صغيرة، وأصغر ما تستطيعون في صفحة المدين، فالحياة لا تزداد سعادة بإدامة التفكير في المحن".

والحق أنه أخذ نفسه بهذه النصيحة أكثر مما أخذ بها أي إنسان سواه.

سمع "مارشال هول" من زوجته – يوم جلوتها – أنها لا تحبه! وأذاقته المر من سهر العسل، تتركه في باريس يذرع الشوارع بحثًا عنها، وتهدأ لتغضب، فيتخبطه الشيطان، ومع ذلك يتجر في المجوهرات ليستوفي نفقات رحلتها.

كانت مرهفة الحس محطمة الأعصاب، فلم تكن لفتى قلق، حساس، يكسب نفقات حياته بالجهد واللغوب، يأوى إلى سكنه بعد معارك النهار، ينشد الرفد أو الراحة فلا يلقى إلا نفحات العذاب! وأن الاضطراب لينتقل من داره إلى أعصابه ثم إلى أعماله فيتخلى عن القضايا ويحيلها على زملائه – وقد عرفوا ما جاءه من اليأس – ليترافعوا فيها بدلاً من متساندين في ميدان الإخاء العظيم الذي هو المحاماة.

ولم يك بد مما ليس منه بد فتتاركا.. وحاول أن يدفن آثار شقوقه في آخر الدنيا، ولاحت في الأفق بوارق الأمل أن شغرت وظيفة المدعي العمومي في "جاميكا" سنة ١٨٨٨.

أما هي – فرحلت إلى أستراليا فتمكثت غير بعيد ثم قفلت راجعة وتلقاها ضابط حدث فتحابا، فاستنزلها الشيطان، فأحست بالجنين يضطرب في أحشائها...! وأهرعت إلى طبيب للإجهاض ورأت شبح المنية، فأبرقت في ساعة العسرة إلى "مارشال" بباريس، فخف الفتى المسماح فرآها فارقت الحياة بين يدي الطبيب بعد ستة أعوام نحسات من ذلك الزواج.

وسبق الطبيب إلى قاعة المحكمة التي طالما جلجل فيها، من بعد، صوت "مارشال هول" لتسجل دفاترها عار أكبر محاميها! وخمسة أعوام للطبيب.

وعاش "مارشال" يجتر تعاسته بالذكريات.

لكنها يد السماء على الأرض، فقد شاركت المحن في تأليف مزاجه. فصارت مآسي موكليه مآسيه، وكأنما قذفت نفسه في النار، فخرج منها كما يخرج المعدن الحر بعد الاختبار، ففرط أنداده وفاق أترابه.

وإنه ليترافع في إحدى قضاياه بعد حين من الدهر، فيصبح في مرارة تقد الصخر "قد يكون الزواج في بعض الحالات أبعد العلاقات الإنسانية عن الفضائل".

بل هو بعد بضعة عشر عامًا في قضية "آني داير" المتهمة بقتل طفل لها من سفاح ينفجر تلك الانفجارات الباهرة فيقلو: "... إن قوانين الطبيعة تلقي العبء كله – جائرة – على عاتق المرأة في هذا الشأن دون الرجل ومع أن الجريرة جريرة اثنين فالعقوبة كلها تقع على واحد...".

وفي قضية "ماري هرمان" يصيح والدفع ينهمر على خديه: "اجعلوا الناس يتذكرون أن النساء لسن إلا ما يصنع منهن الرجال، حتى هذه المرأة كانت في يوم من الأيام طفلاً بريئًا.." ثم أدار وجهه فيصر بها تنتحب فصرخ في وجوه المحلفين صرخة مدوية تذيب الفؤاد:

"انظروا أيها السادة، إن السماء لم تمنحها فرصة فامنحوها.."

* * *

وشفت الحياة نفسها، وإن بقيت فيها آثار تدوب، وتلألأ النجم في آفاقه، فلم يكد يبلغ الأربعين حتى تجلى في سماء الحياة القضائية على أنه "معبود المحاماة" The Appollo of the Bar بما اجتمع له من مران واسع في الصناعة وتجارب كبرى من صروف الزمان، وحيا مشرق

ناطق القسمات، وأعصاب مستجيبة لما يواجهها من الفوادح، وعبارات سريعة مندفعة، وأسلوب لا تستوقفه الصغائر ولكنه يضرب دائمًا في الصميم، وبأقوى قواه.

كان من عقيدته أن المحامي ملك الناس لا لنفسه، وفي حضوره عون للعدالة أيًا كانت الحال.

لم يك مثل "بتولو" يباهي في خريف العمر بأنه لم يتول الدفاع في قضية لم يكن ليحكم فيها ضد موكله لو كان في كرسي القضاء..!

وفي الحق إن المحامي الجنائي غير المحامي المدني، وحضور المحامي في الجنايات واجب أوجبه القانون. وكان أكثر قضاياه قضايا جنائية.

لم يعرف عنه في خلال عمره الطويل أنه تردد في قبول الدفاع إلا في قضيتين، ومع ذلك فقد أبى القدر إلا أن يحضر فيهما ليتلقى في كل منهما درسًا على يد القضاء...

ففي الأولى: استشار "السير رتشارد وبستر" فقال له: أرأيت لو كنت طبيبًا. أكنت ترفض أن تعالج سيدة ختم اليأس على علتها؟

فقبل، ودرس، وظهرت له البراءة فأظهر عليها المحلفين فبرؤوها. فصار يقول: لقد تلقيت درسًا لا أنساه أبدًا.

وفي الثانية: جاءه وزير سابق متهم في جريمة خلقية، فحاول الخلاص منه واعتل عليه بطلب فادح في الأتعاب فدفعها من فوره! فلم يك بد له من المرافعة، ولاحت له في شهادة الشاهد الأساسي في القضية ثغرات نفذ منها إلى البراءة.

ولما جاء يشكر له قال: ألم ألق لك إني برئ!..

فأجابه: إني لم أعد أن أقنعت المحكمة بأن التهمة غير ثابتة!! فقبض الرجل يدًا كان بسطها لمصالحته... ومضى...

ودار "مارشال" على عقبه يقول:

لا دخل لذلك في الأتعاب، ولا في آداب المحاماة.

* * *

وفي مارس سنة ١٨٩٤ قدمت إلى محكمة الجنايات قضية عاطفية أجرت ذكر المحامي الشاب على ألسن الناس.

تناهت إلى أسماع الجيران ذات مساء من غرفة "ماري هرمان" أصداء عراك، وصوت يقول: تكلم. تكلم. وآخر يقول: قتل! وعرف المحققون بعد ذلك أنها بارحت مسكنها وقت الحادث واشترت "براندي" ثم نقلت أثاثها بعد أيام من مسكنها وراقبها البوليس، وفتش المسكن الجديد، فكشف في أحد صناديقها جثة رجل عجوز.

لم تكد تستجوب حتى قالت إنها التقطته مخمورًا بالطريق العام فلما هم بها امتنعت عليه، إذ لم يكن معه مال، فضربها وضربته، وغشى عليه وصاحت به "تكلم"... ثم خرجت فاشترت زجاجة الخمر "البراندي" وضمادات لجراحه... وسقته، وضمدته، فنام، ولم يفق منذ نام..

وسيقت إلى المحكمة متهمة بالقتل والسرقة.

كان هم "مارشال هول" أن يثبت أن جراح القتيل من جراء اشتباكهما.

وتناول وضع الإصابات ووضع القاتلة من القتيل. إذ أمسك بعنقها فدافعت عن نفسها بأن ضربته. وهو عجوز مخمور.. واستغل خلافات الأطباء في كلمات بارعة كقوله: "إذا قضيتم بشنق هذه السيدة فستشنقونها برأي طبيب واحد بين أطباء"!!

واستطرد يبين لماذا قالت "تكلم" فلقد كانت مروعة إذ سكت، ألأنها لم تكن تريد أن تسكت أنفاسه بالوفاة! وإلا فلماذا أسعفته بالبراندي والضمادات.

وإن وظيفة المرأة التي فطرها عليها فاطر السموات والأرض هي التطبيب!

وصاح والدمع ينهل على خديه "اجعلوا الناس يتذكرون أن النساء لسن إلا ما يصنع منهن الرجال، حتى هذه المرأة كانت في يوم من الأيام طفلاً جميلاً وبريئًا!".

وجلس بلا أمل بعد ثلاثة أيام من الكفاح ولكنه ألقى وهو يجلس بصره على القفص فبصر بالمتهمة تنتحب في ذعر، فانبعثت منه الأنة العالية "انظروا أيها السادة! إن السماء لم تمنحها فرصة فامنحوها..".

ورأى المحلفون إدانتها ولكنهم طلبوا لها الرأفة، ليمنحوها الفرصة..

وقضى بسجنها ست سنين.

* * *

وفي خاتمة القرن وقعت فضيحة "بالفور" فقدم للمحاكمة مع آخرين وتولى "مارشال هول" الدفاع عن الشريك "بروك" فاهتزت باسمه أسلاك البرق في مهاب الرياح الأربع.

كان "بالفور" عضوًا في البرلمان وعمدة "لكريدون" فتقدم للشعب بمشروعات شركات لبناء المساكن يربح السهم فيها ٨% فسالت إليه أموال الأمة، واستخدم "جورج بروك" في القيام على شركاته، من شركة بناء، إلى شركة تأمين، إلى شركة أراضي، إلى بنك لخدمة هذه الشركات...

وأباح للمديرين أن يتعاملوا مع الشركات التي يديرونها بأرباح، فربط مصايرهم بمصايرها وخزائنهم بخزائنها، وازداد الكسب لكل سبب، ولم يمض طويل وقت حتى كانت أرباح المديرين وأرباح المكتتبين تأتي من اغتيال رؤوس الأموال!

ومع ذلك فقد استمر إقبال الناس على الاكتتاب معتمدين على اسم "بالفور"

فلما آذنت الشركات بالانهيار، فر إلى أمريكا الجنوبية بما استطاع الفرار به، وضبط بعد قليل فسيق إلى إنجلترا، وكان قد استوطن البلاد وغزا قلوب أهليها، حتى ليسابق الفرسان القطار لينتزعوه من قبضة البوليس.

وفي سنة ١٨٩٥ قدم للمحاكمة مع شركائه يتصدرهم "جورج بروك" متهمًا بتزوير أوراق لموازنة حسابات الشركات، وتقدم لتمثيل الاتهام وللدفاع عن "بالفور" أساطين الفقه الجنائي في إنجلترا.

كان "بروك" – كالأوراق التي يصطنعونها– تحت أمر وإذن "بالفور"! لكنه لم يكن يحلم بأن شركاته ستنهار ذلك الانهيار حتى ليودعها كل مدخرات زوجته. بل إنه ليودع إحدى الشركات ٣٥٠٠ جنية قبيل افتضاح الأمر..!

ولقد كان ذلك العصر عصر امتحان النظم البرلمانية، ففي فرنسا اتهم النواب في ١٨٩١ رئيس المجلس "فلوكيه" بأنه ارتشى من شركة قناة "بناما" بثلثمائة ألف من الفرنكات!

وتداولت الصحف اعترافاته، فراح المسكين يقول للمجلس الذي يرأسه: إنني أخذت ذلك المبلغ من أجل صيانة النظام الجمهوري!! وقبض على الشيوخ والنواب والوزراء! واتهم "كلمنصو" نفسه، فدافع عن نفسه ببيانه وبمسدسه!! ضد النائب العظيم أو الشاعر العظيم "دروليد" وحكم بالحبس على "شارل دلسبس" ونجا الأب "فردينان" من محكمة الجنايات لمضى المدة.

وفي نفس العهد كان النائب "ولسن" صهر "جيل جريفي" رئيس الجمهورية يتجر في أوسمة الجمهورية، وهو مقيم في قصر رئيس الجمهورية! فحكم عليه بالحبس عامين... ولم ينج إلا بدفاع قانوني في الاستئناف.

واستقال رئيس الجمهورية المسكين، وأضاف الفرنسيون – وكل شيء عندهم ينتهي بأنشودة – أضافوا إلى أغانيهم تلك الأغنية "كم كانت العصور الخالية عصورًا قاسية! كانوا يعلقون اللصوص على الصليب – يشنقونهم – أما الآن فهم يعلقون الصليب "النيشان" على اللصوص".

وفي نفس العصر كانت فضائح شركات "روكفلر" في أمريكا من رشوة النواب والشيوخ والوزراء، فلما حوكمت شكاته قضى عليها بأكبر غرامة عرفها التاريخ القضائي في العالم "تسعة وعشرون مليون دولار" وقال له القاضي "لانديس" (إني لآسف إذ لا أستطيع الحكم بأكثر من ذلك حتى تساوي الغرامة فظاعة الجريمة، وإنه "روكفلر" أصاب الهيئة الاجتماعية بأفدح مما يصيبها به المزورون والمختلسون).

ترافع مارشال هول كما قالت جريدة معاصرة "مرافعة بليغة العبارة متزنة الأداء، صادقة، مخلصة، تلائم الظروف إلى أبعد الحدود". قال: عرفت بروك لثلاثة أعوام خلت وإني لأجزم من ملاحظتي الشخصية له أنه رجل شريف برئ لقد فقد كل شيء. وأنه لينفق على دفاعه من عطف أصدقائه! إن من الحقائق المسلمة أن رجالاً يغالون في تقدير رجال آخرين فيسيرون وراهم بكماء، عمياء، دون أن يفركوا في التحقيق من أمرهم على استقلال.

وأشاد بتحمله المسئولية عن سواه من المحاسبين، وكان حصيفًا لم تفارقه الفطانة، حتى أنه ليوجه سؤالاً ويعتذر عنه في إسماح يخلب الألباب قائلاً: إني أعتذر عنه لأني لا أراه منتجًا.. فنهض المدعي العام يعتذر له عن اعتذاره، قائلاً: ليس في الإمكان أبدع مما كان!!

ولما انتهى من دفاعه هنأه السير "وبستر" – وكان من هيئة الاتهام بقوله: إني لم أسمع خيرًا من ذلك في طول ما حييت لا شكلاً ولا موضوعًا...!

ذاعت في هذه القضية مقدرة مارشال هول على تحريك القلوب في القضايا العاطفية فوضع قدمه في سلم لمجد ولم يتوقف عن الصعود.

وقبل النطق بالحكم قال رئيس الجلسة "لبالفور": "لقد قيل إن الأيام لو واتتك لنجحت شركاتك، أي استترت زلاتك، لكن نجاحها لم يكن ليمحو الغش الذي سودت به وجه الدنيا في أعين المساكين من مخدوعيك. إن قضبان الحديد لن ترد عن أذنيك أنات الثكالى الأرامل اللائي جلبت الخراب عليهن".

وأدار وجهه إلى "بروك" يقول "لقد وقفت إلى جانب "بالفور" وأسهمت في انهياره لأنك مدين لي في كثير مسوق إلى تأييده بعاطفة لا تقاوم – وكان لزامًا عليك أن تتذكر أنه ليس من الشرف أن يكون الرجل غير أمين".

وحكم على "بروك" بتسعة أشهر، وعلى "بالفور" بأربعة عشر عامًا ولم يكد "بورك" يبرح السجن إلا إلى القبر.

وأما "بالفور" فاستوفى أعوامه الأربعة عشر، وخرج يبحث عن عمل.

* * *

وفي سنة ١٩٠٠ ترافع عن "آني داير": فتاة عاملة، خدعها رجل من الطبقة الراقية. متزوج، فرحلت إلى حيث وضعت حملها. وفي ذات يوم قالت للفتاة التي تقوم على خدمتها "كيف يمكن التخلص من طفل كهذا".

ونام الطفل في مخدعه ثم لم يعثر له على أثر.

ورحلت في الغداة إلى أخت لها.

وجد البوليس في آثارها ودارت عجلة التحقيق فأجابت "سأقول لك الحق لقد قتلته – إنني لم أعرف كيف أتصرف فيه – لقد وضعته في صندوق – ستجده هنالك".

وعثر البوليس على الصندوق حيث دلت عليه.

ووجه إليها البوليس تهمة القتل فاعترفت – وكان أفدح الأدلة عليها قولها "كيف يمكن التخلص من طفل كهذا".

أما الدفاع فكان بديعًا: إذ جعل عبارتها دليل براءتها، مع تعديل بسيط في النبرات والإشارات، وفي أخراج العبارات، جدير بالمحامي الذي طالما مثل نفسه بالممثل.

فإذا قالت الفتاة التي ترضع طفلها وتهدهده "كيف يمكن التخلص من طفل كهذا!" فإنما هي قالة الحب والإعجاب!... وهي على كل حال ليست كلمة القصد المصمم على إعدام وليد بين يديها، تسلمه ثدييها..

أما قولها "لقد قتلته – إني لم أعرف كيف أتصرف فيه – لقد وضعته في صندوق" فإن المعنى الإجرامي فيه يستحيل إلى معنى إخباري فيه مرارة الندم للإهمال، إذا صح قوله عنه وهو أن ترتبط الجملة الثانية بالثالثة وأن تنفصل عن الأولى.

ولقد أيد ذلك التخريج فهم مفتش البوليس للعبارات عندما دونها. فلم يتهمها بالقتل العمد، في محضره؛ ولكنه اتهمها بمجرد القتل.. أي بمجرد التسبب فيه.

وانطلق يصب على الاتهام نارًا. وتحركت ذكرياته، وارتاع الحضور لذلك الفيضان الدافق من الفصاحة.. لكن أحدًا – اللهم إلا مساعده وقاضيه – لم يدرك لماذا يتضافر تياران من المرارة، وقوة العبارة، على الأخذ بمجامع القلوب، كقوله "إن قوانين الطبيعة تضع العبء كله جائرة على عاتق المرأة في هذا الشأن دون الرجل، ومع أن الجريرة جريرة اثنين فالعقوبة كلها تقع على واحد! لقد فكرت في أن أكشف لكم عن الرجل الذي اختلس من هذه الفتاة فضيلتها، لكني آثرت أن أعقبه وزوجه، وأن أدع الفتاة السجين تحمل وحدها كامل العبء وكل النتائج".

تأثرت المحكمة بكل كلمة فاه بها الدفاع، فقال القاضي للمحلفين في تلخيصه:

"لا شك أن المتهمة كانت مشغوفة بوليدها. إني لم أشهد في حياتي قضية كان لنبرات الصوت فهيا هذا المدى من الأثر. وإن ما روته الشاهدة عن قول المتهمة "كيف يمكن التخلص من طفل كهذا" مع بعض الضغط على كلمة "يمكن" ليزيد الأمر تعقيدًا. أما عن قولها لمفتش البوليس "لقد قتلته. إنني لم أعرف كيف أتصرف فيه" فإنا لو وقفنا عنده ثم استأنفنا قولها "لقد وضعته في صندوق" فإنه يكون قولاً عجبًا. مثلما هي الحال إذا قالت "لقد قتلته لإني لم أعرف

كيف أتصرف فيه". فإذا وقفنا قليلاً بعد عبارة "لقد قتلته". ثم استأنفنا قولها "إنني لم أعرف كيف أتصرف فيه ووضعته في صندوق" فلا تكون العبارة ذات خطر".

ورأى المحلفون البراءة.

وتعالت الهتافات فقال القاضي للجمهور نحن في محكمة لا في مسرح!

وفي ختام العام وقعت وقائع قضية يراموث، فترافع فيها إحدى روائع مرافعاته وسنورد خلاصتها بعدُ.

obeikandl.com

مع السلطة الثانية

في سنة ١٨٩٩ قرأ كف مارشال هول أحد شهول قضاياه، فتنبأ له نبوءات قال عنها في كتاب بعث به إليه في سنة ١٩٢٤ "لقد حققت الأيام صحة نبوءاتك إلى حد عجيب"...

قال قارئ الكف لا شية في كفك تشير إلى نجاح حتى الخامسة والعشرين، لكنك تتبوأ بعد الثلاثين مكانك بين عظماء صناعتك. إن في رأسك بلاغة أكثر من المنطق. وأسوأ ما في كفك الجانب العاطفي. سيغرم بك النساء، لكنهن لن يسعدنك!.. وفي حياتك زواجان أولهما بئيس، يصيب كل حياتك، وستموت وأنت في قمة المجد، وفي كامل أهبتك".

ولمح القارئ بعد قراءة كفه إلى أنه يرى جماهير تحتفل به وإلى جواره سيده في شرفة تلوح للجماهير بمنديل أبيض ولكنه لم يتبين حقيقة الأمر في هؤلاء.

ولم يكد ينصرم العام حتى جاءته تباشير الحياة السياسية حيث كان يقضي إجازته بعيدًا عن لندن يتأهب لقضاء الصيف في "مارينباد".

وفي صبيحة يوم السفر إلى مصيفه تعجله البرق لمقابلة "اللورد دربي" بلندن، فخف إليها حيث عرض عليه أن يخوض غمار الانتخابات في دائرة "سوث يورت"، لينتزع من يد حزب الأحرار مقعد اللورد "كرزون" وكان الأحرار قد غلبوا عليه المحافظين في الانتخابات السابقة.

ومع أنه لم يكن يستحب معارك الانتخابات، فقد خب فيها ووضع.. وضع يومًا نداءه الانتخابي ودفعه إلى نادي المحافظين في الدائرة قائلاً: "لقد أنفقت ساعات في إعداده بمساعدة زميلي "المستر مور" وهو حجة في النحو".

وهكذا في تلك المناسبة من مناسبات الغرور لم يفارقه من طباع المحامي العظيم الاعتراف بمجهود مساعديه.

كتبت إليه في سنة ١٩٠٠ إحدى المعجبات به عقب قضية "يارموث" تطلب صورة "لأكبر المحامين رشاقة وعبقرية" فبعث إليها يشكره، وبصورة زميله عن المتهم!.

تجلت عبقرية الانتخابات كما تتجلى أرواح الجان: تساءل خصمه قائلاً "من مارشال هول هذا؟ إنه لا عنوان له"! فأجاب "مارشال هول": "إذا انتظر منافسي بضعة أسابيع فسيعلم أن عنواني الدائم: مجلس العموم".

كان التشابه كبيرًا بينه وبين "كيرزون" لكن طباعهما كانت تتنافر، كان هول رجلاً شعبيًا أما "كيرزون" فلمصر به عهد يذكرنا بصلفه وكبره في مفاوضات عدلي – كيرزون.. ولما مات قال شاعر إنجليزي "إننا نشيعه بالثناء لكن أعيننا جافة".

مشى المرشح الجديد في أسواق "سوثبورت" يعرض عروضًا انتخابية تفنن فيها طبيعة المحامي الساحر، والصائد الماهر، كأن تضع زوجته الجديدة في فمها سيجارة. أو ورقة لعب، فيصيب الورقة والسيجارة بمقذوف ناري وهي بين شفتيها..

وقاطعه رجل في اجتماع انتخابي فأهاب به أن يصعد على المنصة لجداله! وصعد المسكين ولم يسمع الناس صوته فسألوا: ماذا يقول؟ فصالح "مارشال هول": هو يقول إنه يتمنى لي النجاح!..

وفهم خصومه. بعد الأوان، أن الصعود إلى المنصة محنة المحن...! لقد سعى إليها أحد المعارضين يومًا فلم يكد يبلغها حتى تقطعت به الأسباب، وأدرك أنه وقع في حباله، فصاح في فزع المستجير "لقد انسقت كما يساق الكبش إلى الذبح!... أهذه أساليبكم في معاملة الرجال؟ أنا في دهشة... إن التقاليد المسيحية لا تسمح بهذا الخ.... الخ".

وبارح الاجتماع بين صيحات السخرية وضحكات النظارة.

كان يتلو في اجتماع انتخابي لاحق فقرات من نظام وضعه المحافظون لاستخدام العمال وكان خصومهم يصمونه بأنه نظام استرقاق فراح يتلوه، مادة مادة، ويتساءل: أهذا نظام استرقاق، وكانت كثرة المجتمعين ضده، فكان الجواب: نعم، فكان يستطرد ثم سأل ويكون الجواب: نعم!... نعم!.. فحانت منه لفتة بارعة من لفتات الارتجال، قال: "أنا سعيد بهذه الإجابات.. إن النصوص التي أتلوها نصوص النظام الذي وضعه خصومنا".

ظفر مارشال هول بالكرسي، واحتفت به الجماهير وهو في شرفة الدار" إذ أعلنت نتيجة الانتخابات، وكانت زوجه إلى جواره تلوح للجماهير بمنديل أبيض!... تمامًا مثلما تنبأ قارئ كفه.

قام يتكلم لأول مرة بمجلس العموم تأييدًا لمشروع قانون لمنع الأطفال أن يتعاطوا المسكرات في المحال العامة. وارتفع صوت عضو ساخر يقول: "لماذا لا توزع البيرة عليهم في بيوتهم في البكور. كما يوزع اللبن في قوارير"؟ فتابع الخطيب الفكرة قائلاً "لم لا؟" وفيما هو يستطرد ضج المجلس كله بالضحك.

كانوا يضحكون معه، فظنهم يضحكون منه. فلم يغفرها لمجلس العموم أبدًا.

ولم يظهر له بهذا المجلس بعدئذ أثر في موضوع ذي خطر.

وبقى في المجلس كأنه عضو أشل يقدره زملاءه حق قدره، لكنهم لا ينظرون إليه كسياسي جدي.

وإن تعجب فعجب أن تجود السماء على البلدين المتغايرين في الدم والطباع، برجلين كأنهما نسختان لأصل واحد، في الدم والطباع، وفي المجلس التشريعي:

كان "لايوري" عضوًا في مجلس الشيوخ الفرنسي لكنه – كدأب "مارشال هول" في مجلس العموم البريطاني – لم يكن له أثر، فلقد كان حسبهما دنيا حافلة بالمآسي يحملان فيها أفدح الأعباء إلى جوار مواطنيهما.

كان "مارشال هول" يقدم نفسه كلها، مع فنه كله، لموكليه، في الوقت الذي كانت ترن فيه أصداء صوت "لابوري" في أرجاء العالم، بدفاعه عن "فايان" إذ ألقى القنبلة في مجلس النواب الفرنسي، ذلك الدفاع الذي لا تستطيع تلاوته إلا بعد أن تتساءل مع النقيب "يابان": "كيف لم يبرئوا المتهم؟" وبكفاحه عن "إميل زولا" و "دريفوس" مضحيًا في سبيل عقيدته المال والراحة، والطمأنينة والرفاهة.

ولما نفذ رصاص الحمقى في جسده، لم ينفذ الرعب إلى قلبه، بل أجلت القضية ثلاثة أشهر حتى يبرح المستشفى ليترافع ضد الجيش وحزب الجيش ومنهم مطلق الرصاص!

ولما هوت من فم النائب العام وهو إلى جوار المحكمة في أعقاب قضية "إميل زولا" (١٨٩٨) كلمة استهجنها "لابوري" رشقه بأروع كلام يرتجله محام، في وجه الاتهام، ذبًا عن حياض المحاماة. قال "إن سبابك التي سقطت من كرسيك الرفيع لن تستطيع الصعود إلى المنصة الرفيعة التي أترافع منها".

وكأنما كان "شارل شنى" يصف "مارشال هول" وهو يصف "لابوري"... قامته العاية المستقيمة وصدره العريض وكتفيه اللتين تشبهان أكتاف المصارعين. كل ذلك في تجانسه وانسجامه ينم عن قوة لا يمكن قهرها، وقسمات وجهه الجميلة المنتظمة التي تنفجر حياة في حدة الصراع.. وعاطفته المهتاجة تنشر الشحوب على وجهه، وإذا بصوته يرتفع وينتفخ ويدوي كصوت الرعد...".

وفي سنة ١٩٠١ دعى "لابوري" إلى إنجلترا فكرمته جمعية المحاماة المسماة جماعة "هاردويك" وكان في رياستها المحامي الإنجليزي العظيم "ماتيوز".

فلما مات "بابوري" أبنه ماتيوز بقوله "... إنلابوري بما فيه من الجرأة المزهوة، والوفاء لعمله كمحام، يمثل مكانة عالية في قائمة أكبر محامي العالم. إن اسمه وشهرته لا يمكن أن تزولا بل سيعيشان طويلاً ما دام نظام المحامين قائمًا على وجه الأرض".

وما أصدق هذه الأقوال في جملتها وتفصيلها لو وصف بها مارشال هول، كمحام وكإنسان.

obeikandl.com

مع السلطتين الثالثة والرابعة

القضاء والصحافة

في سنة ١٩٠٠ سلكت الصحافة في قضية "يارموث" مسلكًا معيبًا، إذ انطلق الصحفيون يزيفون الأسانيد ويهددون الشهود، بل يحققون ويحكمون، فاصطنعوا رأيًا عامًا ضد المتهم، وتقدم الدفاع إلى المحكمة بطلب إجراء المحاكمة بعيدًا عن "نورفولك" حيث المحكمة ذات الاختصاص المحلي. وكان قبولها ذلك الطلب حكمًا قاطعًا بأن الصحافة أفسدت عقيدة الرأي العام.

حاول الدفاع أن يكبح جماح صحيفة "الإيفننج نيوز" واندفع كدأبه فقهر "صاحبة الجلالة الصحافة" وَعَزها في الخطاب، فهي عنده "كالغول يشرب من دماء ضحاياه" بل إنه ليقول للقضاء "إن الصحافة اعتدت عليكم مثلما اعتدت على المتهم".

وبعد قليل وكلته الممثلة الآنسة "شاتل" ضد صحيفة "الديلي ميل" لطلب ١٠٠٠ جنية تعويضًا عن كلمة جارحة، وكان الدفاع عن "الديلي ميل" قد اعترف بخطئها وطلب ثلاثة أسابيع لتحضير الدفاع.

فلما ترافع "مارشال هول" قال فيما قال: إن طلب الصحيفة ثلاثة أسابيع لتحضير الدفاع – مع اعترافها بالخطأ – لم يك إلا أجلاً مطلوبًا للتنقيب عما يتعلق بالمدعية في سائر أقطار إنجلترا!

ثم قال: قد تكون موكلتي ملزمة بالعمل لكسب رزقها، لكن لها من الحق في احترام سمعتها ما لسائر السيدات في إنجلترا، بما فيهن الليدي "هارمسورت" (زوجة صاحب الديلي ميل).

وكانت "الديلي ميل" قد نشرت أن الآنسة بوت بنت الآنسة "شاتل". وكانت "بوت" زوجة للورد "هدفورت" أما "شاتل" فلم تكن سلخت من عمرها ثمانية عشر ربيعًا. ولما نُبهت الجريدة إلى ذلك ذكرت في عدد لاحق أنها أخطأت خطأ ظاهرًا.. وأن المعجبين بالآنسة "شاتل" يعرفون أنها سيدة لم تتزوج، ولم تذكر السن، والنشر الجديد، على هذا الوجه الجديد، قدح جديدة.

وظفر مارشال هول ظفرًا فذًا، إذ زادت المحكمة التعويض عما طلبته الطالبة نفسها، فجعلته ألفين وخمسمائة من الجنيهات.

لكن هذا النصر الخاطف كلفه كثيرًا.

فلئن كان عذره في قضية "ياموريث" قائمًا. إنه لم يكن ليعذر في العنف في قضية "الليلي ميل"، وكان حقد صاحبها أعظم من أن يذر مارشال هول. لأنه فيما قال "... فيهن الليدي هارمسورت.."

استأنفت الديلي ميل، وإذا بالمضاعفات تتلاحق، إذ قدمت القضية إلى دائرة كان لقاضي "ماتيو" عضو اليسار فيها.

ولقد كان يجمل بهذا القاضي الخصم أن يتنحى، لكن القضية كانت قضية "شاتل ضد الديلي ميل" لا قضية "الديلي ميل ضد مارشال هول" فلم يستنكف أن ينظرها.

كان "ماتيو" يعتقد أن أسلوب "مارشال هول" ينبو ويكبو بغير داع، وكانت أسباب الاستئناف في الواقع موجهة ضد المحامي، فبدت البغضاء من أفواه القضاة، وانطلق ماتيو يتحداه، فواجه التحدي بنظائره، وقذف بنفسه من متعبة إلى متعبة، وبلغ المد أقصى مداه، حين نعت "ماتيو" تعليق "مارشال هول" في صدد مهلة الأسابيع الثلاثة. بأنه تعليق مؤذ لا أساس له بالمرة.

قال مارشال: بل له أساس.

قال القاضي: كلا....

قال هول: هكذا ظن المحلفون....

....

قال القاضي: لقد كان إسنادًا معيبًا

قال هول: هذه إهانة.

....

ولما ترافع بعده الأستاذ "منتاج لش" جرى على غراره، فتولى كبره "ماتيو" وعاد يقول: لقد كان قولاً كاذبًا أن يسند إلى دفاع الجريدة أنها استأجلت ثلاثة أسابيع لهذا الغرض.

قال الأستاذ "لش": لكن هذا الغرض كان محتملاً من جانبهم.

obeikandl.com

قال "ماتيو": خير لك أن تكف عن هذا حالاً.

وهكذا تساقطت من فم القاضي كلمات أعنف من كلمات من حكم عليه!... حتى ليقول عنها لورد "بيركنهد" كبير القضاة فيما بعد: "إنني واثق أن محكمة الاستئناف قد ارتكبت في حكمها جريرة عدم الإنصاف لمارشال هول".

ولما أصدر القضاة الحكم لما لم يتناهوا عن المنكر فنعتوا أسلوب "مارشال هول" نعوتًا أصابته في الصميم، في مهنته وفي سمعته، وفي مستقبل حياته.

وانطلقت شياطين الأقلام من عقالها تسبح في أنهار الصحف، بالخط العريض، والشرح المستفيض... وما بالك بقضية صحفية خذل فيها خصم الصحف...!

حقًا إن الصحف القانونية انتقدت القاضي في عنفه لكن "مارشال هول" راح ضحية الحملة فهجرته الكثرة الغالية من قضاياه ودارت عليه دائرة السوء بما تحدثه به هذه الدائرة من القضاة. ففكر أن يتحدى – بدوره – "ماتيو" بمنازلته في دائرته الانتخابية بعد أن يستقيل من مجلس العموم...

نسى هؤلاء القضاء أن الحقائق القضائية ليست حقائق حسابية، بل هي أمور نسبية تتعلق بأطماع الناس وانحرافاتهم، وأن الخطأ القانوني جاثم في أصول الوجود الإنساني كله، منذ أزل الشيطان أبوينا عن فهم القانون فذاقا الشجرة، فأخرجهما مما كانا فيه، ودفع بينهما معهما إلى هذه الدنيا بعضهم لبعض عدو...؟

فعلام يتشدد القضاة هذا التشدد فيما ظنوه خطأ في التقدير، أو في التعبير، من أعظم الرجال الذين انمازوا في أمتهم بالارتجال، وهم العليمون بمبلغ ما يختلف في الحقائق القضائية المفكرون، والمفسرون، والمعبرون.

لقد ذهب الحكم الابتدائي في تأييد مارشال هول إلى أبعد مما طلب! ففيم تلك الثورة من القاضي العجيب في الاستئناف؟

إن ذمة المحامي لن تؤدي ما عليها إلا في جو صالح من الإخلاص والإنصاف والزمالة.

المحامي متكافل مع القاضي في أداء "الحقيقة القضائية" ومن أجل ذلك فالمحامي "أول قاض في القضية". في حين أن القاضي، "آخر محام في القضية" لأنه هو الذي يتولى الدفاع عن حكم هو نفسه "عنوان الحقيقة" لا "الحقيقة".

المحامي يترافع للقاضي ليصدر الحكم... والقاضي يترافع للدنيا – بكتابة الأسباب – لتصدق الحكم... وهما زميلان متجاوران، يجلس أحدهما إلى منصة عالية في هدوء وأمنة واطمئنان، ليحكم دون أن يتكلم، ويقف الثاني مجلجلاً بصوته، مجاهدًا بأسلحته كأنه الجندي في الميدان، فيمثل المحامي "طلاب العدالة" التي تطلب بالقوة والأمانة، ويمثل القاضي "مانح العدالة" التي تمنح بالإنصاف والرزانة، في قاعة يجتمع فيها الإنساني والرباني، تسمى دار القضاء...!

وفي هذه القضية كان نصيب المحكمة الابتدائية أعظم من نصيب المحامي، لكن القضاة قست قلوبهم في الاستئناف، فتركوا المحكمة وأمسكوا المحامي!

كانت طباع "مارشال هول" طباع رجل مكافح، مندفع، مخلص وهي طباع لعلها لا تصلح لرجل السياسة أو الإدارة أو المجتمعات. لكن فيها من الإخلاص والقوة وإنكار الذات ما يجعله أصلح الناس للمحاماة.

وقف يترافع عن اللورد "رسل" ضد اللادي "سكوت". فقال القاضي "هوكنز" في صدد واحد من أسئلته: غريب!.. فصاح "هول" إن هذه الملاحظة – لصدورها من ذلك المصدر – لا تغتفر!..

فقال القاضي في هدوء: لا تغفرها.

وأصر "مارشال هول" على توجيه بعض الأسئلة.

فقال "هوكنز": إن هذا الأسلوب يراد منه المضارة.

قال "هول": بل العدالة يا حضرة القاضي.

قال "هوكنز": بل المضارة.

قال "هول" بصوت عال: العدالة لا المضارة.

كانت الحقيقة عنده أجدر بالاهتمام من قواعد النظام، والعدالة أولى من عمالها بالاحترام، ومن أجل ذلك هابه رجال القضاء وشاع عنه أن المحلفين يحبونه وأن القضاة لا يحبونه، وأنه يحاجج خصومه بما يتجافى مع النصفة، ويسلق القضاة بألسنة حداد، وهو براء من كل ما نسبوا إليه.

إنما المرافعات معارك فيها الكر، والفر، والهجوم في المواجهة، ومن الجنب، ومن الخلف، في ميدان لا حدود له سوى الفضيلة، ولقد درج القضاء في كل مكان، نصب فيه ميزان العدالة على التجاوز عن فرطات الارتجال. لأنهم عليمون بمخاطر الكلام من كثرة ما رأوا وما سمعوا. ومن قلة ما ترافعوا!..

فإذا حوسب المحامي ذلك الحساب العسير على ما ينطق به لقاس كلماته، قياس من يمشى على الصراط خطواته، وإذن لما استطاع المداره المقاويل أن يبينوا، وللبسوا الحق بالباطل، ومردوا على النفاق، تحت هذه السيوف المتصلة على الأعناق، وإذن لبخعت المحاماة نفسها لانهيار دعامتيها وهما البيان والحرية.

كان "ففياني" سريع الإلقاء كمارشال هول حتى ينعته "هنري روبير" بأنه أسرع الخطباء البرلمانيين" بل كانوا يسمونه "البلاغة" فوقف يومًا يترافع أمام محكمة "آلبي بفرنسا، قبل ذلك ببضع سنين في ١٧ مارس سنة ١٨٩٤، عن رجل قذف عمدة فاستفتح الكلام عن الاتهام بأنه "غير عادل ومستبد" فوجه وكيل النيابة إليه جنحة الإهانة، وحكم بإيقافه شهرًا ليصير بعد قليل وزيرًا للعدل فرئيسًا للوزراء!...

ولما ترافع النقيب "كارتييه" في استئناف حكم الإيقاف، ختم مرافعته بما يجب أن يتدبره القضاة قال "... فإذا أطردت نظرية محكمة "آلبي" فتسصبح المرافعة مستحيلة، ولئن حتمتم على المترافعين أن يقيسوا كلماتهم كما يقيس السائرون خطاهم، وأن يزنوا كل لفظة، ويترددوا أمام التفسيرات التي قد تنسب إلى تفكيرهم. إنكم لتخاطرون بأن تخنقوا أروع وثبات الارتجال وتخمدوا جذوة الفصاحة...".

ومن قبل "ففياني" وقف "إميل أوليفييه" في صدر الشباب قبل أن يضحى رئيسًا للوزارة الفرنسية وصديقًا للخديوي إسماعي، وقف يترافع عن الفيلسوف "فاشيرو" صاحب كتاب "الديمقراطية" فرمى الأفوكاتو العمومي بأنه يستعين بالشهوات المثيرة، فطُلب إليه أن يعتذر عن هذه البادرة فأصر بل أضاف "إن شخص النائب المترافع محل احترامي. أما مرافعته فملكي

أمزقها إربًا إربًا ومن حقي أن أطأها بقدمي" فأوقف ثلاثة أشهر وقررت محكمة الاستئناف أنه إذا كان من حقه الدفاع فليس من حقه المهاجمة...!

لكن محكمة النقض قررت أنه لا دفاع بغير هجوم..!

* * *

انصرف الناس عن "مارشال هول" إذ ناصبه القضاء العداء، فعد إلى لآلئه يبيعها وإلى ماساته يرهنها، وأخذت أفئدة زملائه، بين محب وكاره، تهوي إلى الرجل الكريم النفس في محنته، حتى أن عميد المحامين ليبعث إليه قضية كبرى عطفًا في مصابه!...

ونزل إيراد مكتبه من أكثر من أربعة آلاف جنية سنة ١٩٠١ إلى ألفين سنة ١٩٠٢. بل نزل هو إلى أن يرهن دبوسًا من الماس لقاء خمسمائة من الجنيهات في أغسطس سنة ١٩٠٢.

وحاول زميله "رافس إيزاكس" أن يدخل في العملية على أن يرد الدبوس إليه في خلال عام أو يبيعه لحسابه فشكر لي صنيعه وأبى.

وفي سنة ١٩٠٤ لم يبلغ دخله ألفين... وفي سنة ١٩٠٥ لم يصل إلى ألف وثمانمائة!

لكن المحاماة لم تكن يومًا ولن تكون تجارة، فالضيق لا ينسخ مزاياها والنعمة لا تضيف إليها فخارًا... إنما هي رسالة تتعالى مع المسغبة كما تتجلى مع الرفاهة!

هي كفاح مستمر يشرح المقاتلون فيه صدرًا بالغمرات. فإذا أصابوا مالا فَنَعامةَ عين! وإلا فإن هذا الرداء الأسود هو رمز التضحيات الأعز! الذي لا يساميه عز!

والمحامي الحق يهوى المحاماة للمحاماة! ومن عجب أن يثاب المحامون على أفعال يود الموهوبون منهم لو قدموا أموالهم لمن يتيحون لهم فرصة القيام بها، في سبيل الكرامة، والكفاح، والاستقلال.

من أجل ذلك لا ينجح الرجل في مهنته على قدر كفاياته كما ينجح رجال المحاماة... ذلك النجاح الإنساني لا التجارى. الذي هو السيادة لا الثروة. والتضحية لا الاستغلال.

لم تهن عزمات مارشال هول. بل أخذ يكافح كوامن البغض وظواهره من القضاة، وتجلت مواهبه في شدته، والمواهب العظمى لا تبرز مثلما تبرز في المحن.

قال لـه قاض فـي قضـية اخـتلاس كبـرى، لقـد سـمعتك يـوم الثلاثـاء! إلـى متـى نسـمع مرافعات! فهم به ليجيبه لولا أن نبهه زميل له بقوله: تذكر أنه يجلس هناك. وأننا نجلس هنا!

مع ذلك لم يجنح إلى السلم ورد بقوله: إنني أظن أنك لم تسمعني لأنك كنت راغبًا عن سماعي!

قال القاضي: ليس لك يا مستر "هول" أن تقول ذلك الكلام! – لقد نويت عدوانًا وليس لك الحق في العدوان..

وعاد "مارشال" فاعتذر وهدأت الزوبعة. بل توشجت الداقة بين القاضي وبينه فصارا صديقين حميمين.

وفي يوم من أيام سنة ١٩٠٢ وقف الأسد الجريح يترافع في قضية أحد المسارح خمس ساعات ونصف ساعة، وخرج ظافرًا بتحيات القضاة، محفوفًا بستين من رجال المحاماة، جاءوا يسمعونه ويحيطونه بهالة من الإجلال هي حسبة لترفع اسمه إلى صفوف زعماء المحاماة في سائر الأجيال!

وأي تحية لمحام في أمة من الأمم أن يستمع إليه وهو يترافع ستون من المحامين! وهم المتنافسون أحيانًا، الراسخون في العلم داومًا!

إنها لبيعة إذا انعقدت لمحام كان أحق الناس بوقل ماكسابيتو "المحامي ملك". وفي سنة ١٩٠٣ نهض يترافع ضد سيدة أمريكية عن رجل كانت قد استخسرته ليوافيها بأسرار زوجها، وكان الزوج قد قضى نحبه فأل إليها ثراؤه، ونبه القاضي "مارشال هول" إلى أن يأخذها باللين، لا بالعنعف، وأن يتذكر معاركه السابقة مع خصومه، فلم يكد يلقي بنفسه في عرض البحر حتى استرد حريته فأطلق شراعه! ولم يسكت عن اتهامها لموكله بالتشهير والتشنيع فحمل عليها حملة صادقة وكسب الدعوى.

ولم تكف الصحف عن طريدتها، فاقتفته حينما ثقفته. فإذا خسر القضية عرفته، فسطرت اسمه في كمال أحرف الهجاء، وإذا كسب نكرته وأشارت إلى اسمه بالحرف الأول فقالت م. هول مع شيوع اسم (هول) بين الإنجليز! بل إنها أحيانًا لا تشير إلى اسمه الأول البتة فتقول "مستر هول".

obeikandi.com

وأخيرًا التقى بواحد من رجال "الديلي ميل" فسأله عن أسباب هذه المؤامرة السافرة، فأجابه لأنك لم تترافع ضد "هارمسورت" وحده يوم ترافعت في قضية الديلي ميل ولكنك ذكرت اسم زوجة!! قال معاذ الله إني لم اقصدها بسوء وكتب إلى "هارمسورت" معتذرًا فتلاقيا وتصافيا وكانت نهاية المحنة.

obeikandl.com

دورة الحظ

لم تكد تنتهي سنة ١٩٠٥ حتى واجه مارشال هول مصايره في الحياة، مخففًا في المحاماة باعتبارها مصدرًا لرزقه، وفي نفس العام ماتت أخته التي كانت أحب الناس إليه وأحناهم عليه.

وفي نفس العام دخل الانتخابات فمنى حزبه بهزيمة نكراء أضاعت منه دائرته الانتخابية!

لكن العظائم كفؤها العظماء، والعظيم لا يخرج من المحنة منكسرًا، فخرج "مارشال هول" من محنته وقد صهرته الأهوال. فأظفرته بكنز موفور من التجارب، وخبر طبائع الناس، والقضاة، وقوى الصحافة، وازداد لصناعته حبًا، لأنها زادته عزًا.

ومن المحامين العظام. طرازان. طراز تبنته التجربة وآخر تبنيه الكتب، ويبدو أن بنيان التجارب أقوى من بناية الأسفار والمراجع. فالتجارب وقائع حية فيها من الحياة ومن التطبيق، ما لا تحويه الكتب، والعلم المتاح في غمراتها ليس علم الفروض والنظريات والنصيحة، وإنما هو علم يشارك فيه المتعلم بذات نفسه، إذ يصنع العلم ويحصله معًا.

من أجل ذكل كانت تجارب مارشال هول غذاء قويًا لذاته وكفاياته، وكانت تجارب "الهلباوي" كالتيار الخفي يجري تحت الثرى فيملأ العيون والآبار وليس شيء كالفن، اعتمادًا على المواهب لا على الشروحات، فلقد طالما خلق الفن النظريات واستبق الوقائع، وليس كالمحاماة العظيمة فن، لأنها حرب بالجهد وبالفكر، تعتمد على العلوم والفنون جميعًا.

وأخلق بالتجارب العظيمة أن تبني الرجال العظماء فكيف إذا اقترنت بالقوى الخالفة التي تسوق الرجل فينساق تبعًا له الرجال... تلك القوى المسماة بالعبقرية.

أقبلت سنة ١٩٠٦ ودار الحظ دورات مسعدة، وفتح الله عليه بركات من السماء، فتتلألأ اسمه في الصحف كما جلجل صوته في المحكمة، وعلا التيار. وفاضت سيول النجاح من كل جانب، وعاد الميزان إلى الاعتدال.

في نهاية سنة ١٩٠٧ وكل في قضية الفنان "وود" إذ اتهم بقتل غائبة يغشى دارها – وكأنما كانت ناقوسًا قرعه الحظ في أقطار الجزيرة ليجذب الأنظار والأسماع، إلى أحسن صوت عرفه الإنجليز للدفاع، فبرئ المتهم، وفي خارج المحكمة آلاف من أهل لندن.

وإن حقيقته لتسرق يومًا وهو على سفر، وفيها ما فيها من نفائسه وأعلاقه، فرجع إلى قومه غضبان أسفًا، لكنها أعيدت بعد أيام لا تنقض حبة، ومعها رسالة من السارق، أنه لو عرف صاحبها ما سرقها!!

وذاع في المجتمع أنه المحامي الأكبر في قضايا القتل، حتى ليوجس رجل من رجال. المال خيفة إذ نُصح بتوكيله ويقول: لو وكلته لحسبني الناس قائلاً.

وفي سنة ١٩٠٩ ترافع عن "إدوارد لورنس" مرافعة نعتها بأنها أعظم نصر ظفر به.

وفي سنة ١٩١٠ ترافع عن الدكتور "كريبن" الذي سمم زوجته فأعدم.

ولم يكد العام ينصرم حتى اشتملت التعيينات القضائية على ألمع الأسماء مثل "منتاج لش" الذي لم يهب يوم هددهما القاضي "ماتيو" "ورافس إيزاكس" صاحبه يوم رهن الدبوس. ولم يعين "مارشال هول" في القضاء، فليس ينسى ما كان بينه وبين القضاء.

وضاق نطاق الاختيار عند المتقاضين...

ودارت عجلة الحظ من جديد..

وجلس على كراسي القضاء أصدقاء قدماء باسمه ثغورهم. فشاع الابتسام في الأفق. ودخل انتخابًا فرعيًا للبرلمان في أول العام – خرج منه بكرسي في مجلس العموم. واستفاض الابتسام، في نهاية العام، ودخل الانتخابات العمومية وظفر بكرسيه من جديد.

ولقد طالما كانت الحظوظ الحسان، وما تزال، كالجواري الحسان، جواري في موكب المنتصر، تلاحقه، ولو على رغمه، عوامل الظفر.

فإذا عبست الدنيا تولت عن الرجال فأسلمتهم الجدود العواثر إلى جدود عواثر، وجروا إلى حتوفهم، كأنما يهرعون إليها عن عمد وهم لا يفقهون...!

وفي مارس سنة ١٩١٢ ترافع في قضية التسميم عن "سيدون".

وأعلنت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وهو في السادسة والخمسين، فلم يبرز للقتال وزادت الحلقة ضيقًا على الموكلين، فزاد رزقه سعة، وآلت إليه قضايا زملائه المجندين فكان يبعث إليهم بنصف الأتعاب.

وهي ظاهرة يقدرها رجال المحاماة – كما قدرها "لورد بركنهد" وهو يتحدث عن إرساله نصيبه في قضاياه.

وفي سنة ١٩١٨ قدم إليه موكل قديم "شبك" بأتعاب ليس كالذي قدمه له بأتعاب منذ ثلاثين عامًا. تمامًا (سنة ١٨٨٨) فالشيك القديم كان بسبعة جنيهات. والشيك الحديث كان بسبعمائة.. وألف من الجنيهات!

وفي إبان الحرب ترافع عن السفاح يوسف سمث. الذي تزوج من ثلاث زوجات. وهو متزوج – وأودى بهن بطريقه لم تكتشف. فلفظن أنفاسهن الأخيرة في (البانيو) في الساكن الذي كان يعدها لهن، ولم يبد عليهن آثار!! ولم تعرف الجرائم إلا بعد ثلاث سنوات.

شغلت المحكمة أيامًا بالقضية وهي في حيرة. فليس ثمة أدلة مادية، أما القرائن فمهلكة! فاستهل مارشال مرافعته بعبارات تملأ نفوس الإنجليز زهواء وقلوب القضاء سموًا. قال "في هذه الآونة التي تقضي فيها الملايين من زهرات الشباب الإنجليز نحبهم في الميادين. أليس مما يرفع هاماتنا فخارًا أن يكرس القضاء هذا المجهود القانوني والقضائي الضخم يومًا بعد يوم لتحقيق وقائع هذه القضية الصامتة، للتحقق مما إذا كانت روح رجل واحد تستحق أن تزهق، إنها لمفخرة رائعة لنظامنا القضائي!".

واختتم مرافعته بقوله: "كونوا منصفين لأنفسكم وللمتهم! كونوا عدولاً بالنسبة للعدالة نفسها قبل أن تحكموا في مصير هذا الإنسان فتقولوا إن هذه التهمة الهائلة قد تثبت".

وحتى هذه السن كانت تتملكه العاطفة فتنطلق انفعالاته وأحاسيسه في عباراته: قال مرة للقضاء من أجل فتاة "إذا أيدتم هذا الحكم كان ذلك خروجًا عن الإنسانية".

ونزل الحكم من ٤ شهور أشغال شاقة إلى غرامة ١٠ جنيهات.

كان يترافع في سنة ١٩٢٠ عن ضابط قتل خليلته وكان كما قال "لا يجد شيئًا يقوله في مواجهة محلفين كونوا أفكارهم ضد موكله" وفيما هو يسعى بين غرفات المحكمة اعترض بصره رهط من السيدات جئن يشهدن المحاكمة، فتفتحت له أسرار البلاغة، وظل يترافع ساعتين طويلتين ودموع المحلفين تنهمر، وهو يعرض غرام القاتل بالقتيل بانيًا دفاعه على جنون المتهم – واستفتح المرافعة بالانقضاض المدمر على "اللائي قدمن إلى القاعة متسربلات بالطرز الغالية، حاليات الجيد بالأعلاق، يتفرجن يومًا بعد يوم على مأساة قلب محطم، يتلمس إنقاذ روحه من براثن الجلاد!".

ثم يقول "إن النفس لترني للأنوثة في بلد هذه نساؤه!..."

obeikandl.com

المحامي الفنان

وكل ماشال هول في بواكير حياته بخمسين جنيهًا في قضية قتل قطار فرحًا يباهي زميلاً له بتلك الأتعاب، لكن زميله قال: "إني لا أقبلها بمائة! إني أكره الجنايات" فأجابه "أريد أن أتخصص في فن الموت والحياة والسجن والحرية. إنني أحب أن أتداول الوقائع لا النظريات لست أعرف كثيرًا من القانون ولكنني أستطيع أن أدرس طبائع الرجال والنساء".

اختار هذا الفن من المحاماة وهو يعرف أنه أشد فنونها إرهاقًا وعنتًا فالمحامي المدني ارستقراطي مستجم، لا يكافح فيسيل دمه أو دم الخصم، أو ترفض دموعه، أو يتفصد عرقًا فيغير ملابسه في غرفة من غرفات المحكمة، مثل "مارشال هول" في إنجلترا أو حسن علام في مصر، ولا يصيح حتى يتوقف صوته عن أن يسمع مثل "لابوري" وهو يرد على النائب العمومي في قضية "زولا"، أو تعصف به العواصف فيخسر نصف عمره، من فجاءات الجلسة ككثير من المحامين الجنائيين، أو يعمل بالقطعة، جنحة جنحة، وجناية جناية.

إنما يسرد المحامي المدني في هدوء وطمأنينة، ويلبس ملابس منشاة يخلعها كما لبسها، وتصله أتعابه في نهاية العام من الموكل الدائم، أو في أعقاب القضية مما أغنى به موكه.

موكلوه وجهاء أو أغنياء، فإن لم يكونوا ثراة أو سراة كانوا طلاب مال أو جاه. أما المحامي الجنائي، فلا يطلب سوى الحرية أو الكرامة.

فأما من يجيئونه من الوجهاء والأغنياء فيجيئونه يوم يجيئونه تعساء بؤساء.

هو كلاعب السيف في الحلبة، أما المحامي المدني فكلاعب الورق، على المائدة، الجنائي كالجراح، أما المدني فكالطبيب الباطني، وهو كالبحر في أحشائه الدر، وفي أمواجه العواصف والنذر، أما المدني فكالبحيرة أو كالجدول أو كالنهر.

قضى مارشال هول حياته كلها فنانًا.. كانت الحياة على لسانه محور الدفاع وغايته. فكانت ترهقه تبعاته ومن أجل ذلك لم يكن التعبير الإنجليزي (He fought a Case) حارب في قضية "أو الفرنسي" (attauquer en justice) "يقاتل في المحكمة" ليجد مصداقة في حياة محام أو أسلوبه مثلما وجد في حياة مارشال هول وفي أسلوبه.

obeikandi.com

كان يعالج النيابة والمحكمة والمحلفين والشهود جميعًا، واحدًا إثر واحد، في كل فكرة، وكل خاطرة، وبكل ما ملكت قواه. كأنما ينازل فريقًا من اللاعبين ليجلبهم عن مراكزهم شبرًا شبرًا بضربة وراء ضربة، مع الجهد المستمر والانتباه المظفر.

والمحامي الإنجليزي يتولى إدارة القضية كلها فترة من الزمن عند الاستجواب. فهو يسأل الشهود ويستجوبهم كيف يشاء، ولا يقنع بمجرد شهادتهم كالنظام الفرنسي أو المصري... حتى ليستخرج القائل من القفص ليستجوبه كشاهد لا كمتهم!..

وكانت قوة الذهن وسرعة البديهة وطبيعة الهجوم التي ركبت في طباعه لا تدع الشاهد إلا إذا لم تذر منه شيئًا... فكان الشهود يرتاعون من ذكر اسمه... فكيف بهم وهم بين أصابعه. بين مخالب الأسد!

بلغ مارشال هول أوجه في قضية (سدون) يوم أختتم معاركه الهائلة في تلك القضية بهذه الكلمة العظيمة "لقد حدثنا العلماء الفحول الذين سمعناهم في هذه القاعة بكثير من عجائب العلم ومن النتائج التي يمكن الوصول إليها به، لكن شيئًا لم يستطع علماء العالم كافة أن يوجدوه، ولن يستطيعوا أن يكتشفوه، مهما بحثوا، ومهما درسوا... وهو: كيف نعوض هذه الشعلة الصغيرة المسماة بالحياة إذا أضعناها!

إن على عاتقكم مسئولية حياة هذا الإنسان، فإذا قضيتم ضده هذه الشعلة الحية ستخبو، ولم يعرف العالم حتى الآن علمًا يستطيع أن يرجعها..."

ولم يكد يجلس حتى جاءته من كرسي الاتهام الرسالة التالية "عزيزي مارشال هول... إنها مرافعة عظيمة حقًا – وهي أعظم ما سمعنا من عظائمك".

ووقف النائب العمومي – وكان "رافس إيزاكس" ليعقب على مرافعته وختم بقوله: إذا استيقنتم أنه لا مراء في ارتكاب المتهم للجريمة وساورتكم الريب في أمر المتهمة فواجبكم أن تبرؤها.

وسنرى لماذا قال ذلك.. ولماذا برئت.

فقد كتب إليه في الغداة يقول: "عزيزي مارشال هول"

بصراحة، وبإخلاص، لا كنائب عام، ولكن كصديق قديم، دعني أقل لك كم راعني دفاعك في قضية "سدون". إن الدقائق الخمس التي وقفتها على المتهمة أحدثت أروع الأثر. وفي رأيي أنها صنعت كثيرًا وإن لم تصنع كل شيء لبراءتها.

... لقد كان على عاتقك عبء فادح... إني لا أريد أن أناقش القضية ولكني أريد أن أقول أمامك ما أقوله من وراءك، لقد بذلت مجهودًا جبارًا، في أسلوب عظيم من تقاليد مهنتنا العظيمة.. ولقد سطر هذا الكتاب ليكون تقديرًا من خصم راعه عمل عظيم قام به العامل في نبالة وجلال، وتعبيرًا من صديق طالما لقى منك تأييدًا كريمًا بل أكثر من كريم.

لقد قرت عيني لانصرافي قبل صدور الحكم، أتمنى أن تكون صحة زوجتكم في تحسن، وأرجو أن تذكرني لها..

صديقك المخلص للأبد

"رافس إيزاكس"

تلك كانت آثار مرافعته في المحكمة، وفي المحلفين، وفي النيابة العمومية، أما في الجمهور فحسبنا أن تشرع المحكمة في نظر قضية "جرينوود" المتهم بالقتل بالسم والبوليس يحرس المتهم من سخط الجماهير. لكن المحاكمة لم تكد تصل إلى نهايتها، حتى كانت الحراسة الخاصة بالمتهم لازمة لشهود الإثبات.

وظل في مغرب حياته كما نشأ في مطلع شبابه، هاويًا عظيمًا للحلي وفنانًا... كان يتدارس مع زميل له قضية طبيب كبير في حضرة الطبيب فترك موضوع القضية وأقبل على زميله يقول له: ما رأيك في هذه الياقوتة؟ وتداولاها، ثم تبادلاها. والطبيب في دهش مما يرى. ومن المحامي "الجواهرجي!".

لقد شهد يومًا في معرض أحد المحال عشرات من فصوص الماس قدر لكل منها ثمن قليل تستوي كلها فيه، فدخل يطلب بعضًا منها بالثمن حسب نسبته إلى المعروض جميعًا، فأبى الجوهري لأنها كانت أغلى ماسات المجموعة وهو يبيع للجمهور لا "للجوهريين" العلميين بالخبايا من أمثاله.

* * *

كان سريع الإلقاء حتى اعتبروه نكبة لكتاب الاختزال...! ألقى ٣٧.٠٠٠ كلمة في أربع ساعات في قضية "سدون" أي أكثر من ١٥٠ كلمة في الدقيقة... لمدة ٢٤٠ دقيقة متصلة! في حين تكلم النائب العمومي ٢٩٠٠٠ كلمة في نفس المدة!

ولم يكن يقيد نفسه بخطة مقررة، بل كان يغير خططه تغييرًا تامًا وفقًا لمفاجآت الجلسات.. وتلك خطة الهلباوي وهنري وروبير وزعماء الارتجال، بل خطة عبقري الخطط في التاريخ مع الفوارق بين معارك الجدال ومعارك القتال – نعني نابليون إذ يقول: "ويل للقائد الذي يذهب إلى الميدان وقد ربط نفسه بخطة لا يغيرها تبعًا للظروف" أو كما كان النقيب الفرنسي "بتولو" في عهد مارشال هول يقول: "المحامي كقائد الجيش لا يغفر له أن يدخل المعركة دون أن يكون قد رسم خطته. كل ما هنالك أنه يستطيع أن يغير هذه الخطة في كل لحظة – فالمرافعة في الظهر ليست كالمرافعة في المساء!.. كما أن عليه أن يعرف الفقه والقضاء، على ألا يستعبده الفقه والقضاء، بل هو يقاومهما إذا خالفا القانون. ولقد طالما قلت لموكلي إنك ستخسر القضية أمام القاضي لكني أراها صالحة فسأقبلها. ومع هذا لم أكن دائمًا أخسر".

إنما يحكم المحامي العظيم دراسة دعواه، وارتجاله كفيل بوضع القوى اللازمة في المنطقة أو في اللحظة الحاسمة.

لقد كتب لابوري مرافعته عن "إميل زولا" قبل الجلسة وهو يظن أن المحكمة لن تسمع الشهود، ولكنها فاجأته بسماعتهم. فظل يسمعهم خمس عشرة جلسة، وهو يستعين بالحمام قبل أن ينام. ليغسل في الليل متاعب النهار، ثم، كما قال "جاء يوم المرافعة فألفيت أمامي ملف القضية ولا فائدة لي فيه ولكن وسائلي كانت بين يدي".

قذف "لابوري" بنفسه في معركة لم يتوقعها، فجاء ارتجاله بالأعاجيب.

كان الارتجال ديدن نظيره الإنجليزي، بل كانت في الإنجليزي صفات جندي العصابات، المرهف الحس، الحديد البصر، الجسور المبتكر، يقاتل بالغريزة لا بقواعد الحرب، ومع ذلك يظفر بالجندي المدرب، يمضي كماك يقول بارتو عن زعيم الثورة الفرنسية المحامي دنتون "... غير منتش يحميا الغرور الأدبي. لا هم له إلا أن يقنع يحتقر الصباح الذي لا معنى وراءه والحماسة المصطنعة والعبارات الخاوية، فيه من الغريزة أكثر مما فيه من الطريقة.. رجل عمل يسلك لغايته كل السبل بما فيها من تنويع وابتكار مفاجئ ملئ بالكنوز...".

فإذا عثرت عينه الفاحصة – عين الصياد القديم – على محلف حليف لوجهة نظره، راح يستميله ليتخذ منه نقطة ارتكاز، ليصب الباقي من قواه على الباقين من المحلفين.

وتلك كانت طريقة لاشو مع تعديل بسيط: إذ يكشف لنفسه أقل المحلفين فطانة فيترافع له... ويترافع له.. حتى إذا فهم كانوا جميعًا قد فهموا..

كتبت إحدى الصحف عن "مارشال هول" وهو في الثلاثين "لقد أقبل الناس على هذا المحامي الشاب الذي حبته الطبيعة خير عطاياها: روعة تمثيل، ولطف محضر، وجهارة صوت، وبلاغة، توحي جميعًا بأن له مستقبلاً غير عادي من النجاح" أو كما عبر عن اسلوبه في ذلك الحين واحد من زملائه بقوله "هذه المرافعة العنيفة العاطفية الخطابية إلى حد عجيب التي استمعنا لها الآن".

فلما بلغ الأوج وصالح الديلي ميل وصف فيها الكاتب الكبير "هو كلين" طريقته في الدفاع والاستجواب وتصوير الوقائع وتمثيل الحقائق بأنها "تناجي العقل والقلب جميعًا مع الاندفاع العاطفي الذي يؤذي في بعض الأحاديين لكنه لا ينحدر إلى الشخصيات".

كانت بلاغته وحيويته، وميله إلى (الدراما) تجعل أسمج القضايا قضايا مشهورة، والمرافعة العظيمة تجعل القضية عظيمة.

قال الرئيسي أودبيير ".... المرافعة القوية هي التي تظهر فيها آثار الروح فتعرض بسمو وبقوة، وبطريقة غير مألوفة للأسماع، آراء لو عرضت في أسلوب آخر لكانت تافهة...."

فإذا عرضت له قضية ذات وجهين، وجه فيه يسر ووجه فيه مأساة، فذف بنفسه في تيار "الدرام" ليقوم بعمل عظيم لحساب موكليه..

اتفق يومًا مع زميل في قضية عادية على حصر الخصومة في حدودها، وأستأذنه زميله في أن يذهب ليترافع في قضية أخرى. فلما رجع وجد مارشال هول قد عبر كل الحدود..! ولم يعد ممكنًا أن يعود! فخلاء بحلق في سماوات البلاغة. وفي أوضاع الدرام... وأسعفته المقادير... وكسب الدعوى...

كانت مرافعاته فنًا خالصًا تنسكب فيه روحه، وتتجلى انفعالاته، فيستحيل قطعة من الوقائع التي عاش فيها موكلوه، تسيل الدموع على خديه كما سالت في قضية "ماري هرمان"! ويسقط المسدس من بين يديه على بلاط المحكمة كما سقط على بلاط فندق "سافوي" في قضية

"مرجريت ف... " ويسدد السلاح إلى صدر القضاة في قضية "لورنس" ويحطم الكأس التي يشرب منها في قاعة المحكمة، ليرى المحلفين مبلغ ما في الزجاج المحطم من خطر لا فزع الخاطر، في قضية فتى قتل صديقه بسكين إذ قذفه بزجاجة، فيظفر للقاتل بثلاث سنين بدلاً من الإعدام!

بل هو يقول عن نفسه "إنني والممثل صنوان، غير أني لا أستعين بمناظر ولا كلمات محضرة، ولا بأستار، وإنما أخلق من الحقائق والأحلام في حياة بعض الناس جوًا صالحًا – لأن هذه هي المحاماة".

* * *

لقد بدأ حياته في المحاماة في العام الذي ختم فيه "لاشو" حياته في الدنيا، وكان يرهف حسه لاستغلال كل بادرة ويمتزج هو بأشخاص قضيته كأفذاذ الممثلين، يندمجون في الدور الذي يمثلونه، فيحيا بهم إذ يحيون فيه.

وقف يترافع يومًا عن فتى قتل أباه وكان رئيس الجلسة صديقًا شخصيًا له. وكان الرئيس قد قال له: هذا متهم سيشنق على رغمك؟ قال "لاشو" لست متأكدًا!.. وتراهنا..

ترافع "لاشو" ساعات وساعات. دون أن يلمح على وجوه المحلفين إلا الصدود، لكنه سمع فجأة أجراس الكنائس تدعو لصلاة منتصف الليل في ليلة عيد الميلاد فأملى قليلاً، وقد تملكه الانفعال، فواتته العبقرية بكلمات الساعة، وراح يقول: في هذه الليلة السعيدة، في هذه اللحظة المقدسة، ولد لنا إله المغفرة، إله السلام، إله الرحمة، إنه عيسى في المهد يصيح بكم أن ترحموا.. اذكروا أن الرحمة العالية ليست بذات حدود ولا تكونوا أشد قسوة من الله نفسه".

وظفر لموكله بالظروف المخففة.. فلم يعدم.. وظفر بالرهان..

وفي ذات يوم ادلت أم القتيل بشهادتها فأجرت من ذوب نفسها تيارًا من الأسى في أنفس المحلفين وران الألم على القلوب وسالت العيون بالدموع. وكان "لاشو" يحس مقدار ما يتأرجح من جراء هذه الشهادة مصير رقبة المتهم. فمد رأسه ليسمع، وحتى جذعه على المنصة ليملأ أذنه، وهم من مكانه، فهوت إلى الأرض "مجموعة لقانون العقوبات" كانت تحت ذراعه، فتهامس القضاة وتسالوا، وطرقت الجلبة آذان المحلفين فتساءلوا، وتساءل الناس، ونسوا تأثير الشاهدة.

كان فرط الإخلاص، خاصة من خصائص "مارشال هرل" فهو يدلي بكل ما يستطيعه لصالح موكليه، بل هو قد يقول – إذا دعت الدواعي – إن معلوماته الخصوصية تؤيد وجهة نظر موكليه.

فإذا وكحله موكل لم يوكل "الأستاذ" وإنما استولى على الرجل.

حقًا إن المرافعة لا يقدر لها النجاح مثلما يقدر لها عند الاقتناع، فكيف إذا اعتنق المحامي عقيدة موكله.. لكن ثمة فيصلاً بين الاقتناع والاندفاع يجب أن يحسب المحامي حسابه، ليحتفظ باتزانه واستقلاله، والقدر القضائي المسلم به له في مقامه.

ولم يكن يكف عن خدمة موكله بعد انتهاء الحكم فكان يبذل قصاراه بالسعي لدى شتى الجهات.

ومن قبله كان أستاذ الجيل "لاشو" لا يتخلى عن المتهم بعد صدور الحكم. بل هو يتابع جهوده في كل مكان حتى ليلاحق الإمبراطور في رحلاته، فلما حكم بالإعدام على الدكتور "لابوميريه" إذا دس السم لعشيقته، جرى المحامي العظيم إلى "كومبيني" في إثر صديقه نابليون الثالث، فقبل رجاءه، ودعا وزير العدل "باروش" لإصدار مرسوم بالعفو، فنبهه على أن الناس قد يقولون "إن العفو منح القاتل لأنه طبيب ولو كان من طبقة العامة لما أخلصه صاحب الجلالة بعفوه" فلم يعف عنه....

* * *

وفي يناير سنة ١٩٢٦ كان مارشال هول يترافع في قضية كبرى عن متهمين بإخفاء سيارات فترك الجلسات بعد أن بدأت المحاكمة ليلزم فراشه فلا يبرحه، وكأنما شاءت العناية أن تربط ماضيه بحاضره، وأن يتشابه العهد في منهاه بمبدئه.

كانت أول قضية وكل فيها قضية إخفاء وكانت الأخيرة قضية إخفاء بعد ثلاثة وأربعين عامًا.

وفي ٢٣ فبراير سنة ١٩٢٦ انطفأت هذه الشعلة التي ستبقى فخارًا للمحاماة في العالم وومضة من ومضات البلاغة الخطابية في تاريخ الإنجليز.

انطفأ المصباح والدنيا تستتير به، وفاضت روح الجندي وهو في شِكته.

obeikandl.com

في محكمة الجنايات

قضية مرجريت فـ....

لعل خصائص مارشال هول كمحام قد اجتمعت في قضية "مرجريت فـ..." ومن حقها علينا أن نقدمها على غيرها لذلك، ولما تثيره في المصريين من شئون وشجون، فلقد اندفع مارشال هول في مرافعته إلى عبارات جارحة احتج عليها النقيب المصري سنة ١٩٢٣، واعتذار مارشال بأنه لا يعني مصر، ولا الشرق، وإنما يقصد المجني عليه.

كان المرحوم ع... ف... ابن المرحوم ع... باشا ف... ومعه زوجه الباريسية الحسناء مرجريت ف... وسكرتيره س... ع... أفندي يقيمون بفندق سافوي في لندن ليلة ١٠ يوليو سنة ١٩٢٣ – وكان الفتى في الثانية والعشرين من عمره، يحمل في لندن اسم "البرنس فهمي بك"! تعرف على السيدة "مرجريت لوران" بباريس فدعاها إلى مصر حيث بنى بها في ديسمبر سنة ١٩٢٢، ولم يكد يتم القران حتى تنافر الشخصان فتنابذ الزوجان.

ولما جلسا يتعشيان في مساء ٩ يوليو سنة ١٩٢٣ قصد رئيس فرقة الموسيقى يسألها أي الأدوار يعزف لها؟ فأجابت:

شكرًا. إن زوجي سيقتلني خلال أربع وعشرين ساعة. فلست مشوقة إلى الألحان...!

وفي الثانية صباحًا كانت لندن تئن تحت عاصفة هوجاء، وكانت تجتاح فندق سافوي عاصفة أخرى، حين سمع أحد الحمالين طلقات ثلاثًا متتالية، فراح يتقصى فإذا "البرنس" في مباذله، مضرجًا بدمه، ملقى على الثرى، يسيل النزيف من فمه، وإلى جواره مسدس ألقت به زوجه، وقالت لمدير الفندق:

ماذا سيصنعون بي؟ يا سيدي لقد تزوجته منذ ٦ شهور وشد ما قاسيت!!!

وقالت للطبيب "لقد سحبت الزناد ثلاث مرات...".

وكان معلومًا أنها تحمل مسدسًا لأنها تحمل حلاها في حقائبها.

لكن لندن ليست كباريس في هتافها للجرائم العاطفية: فكان مصير المتهمة مقررًا.. إلى المشنقة.

لم يتخل عنها أصدقاؤها... فبدأت الاستعلامات في شتى بقاع باريس لجميع التحريات عن سمعة القتيل، وجيء باثنين من الشبان بقيا رهن أمر الدفاع ليشهدا بحقيقة أخلاق "الأمير" وعهد إلى مارشال هول في الدفاع.

وفي ١٠ سبتمبر نظرت القضية برياسة قاض كان من قبل محاميًا يساعد مارشال هول في القضايا.

وحضر الأستاذان عبد الفتاح [١١٦] رجائي وعبد الرحمن البيلي [١١٧] من المحامين المصريين يراقبان الدفاع عن سمعة القتيل.

وسمع س... ع. في اليوم الأول، وقدم الدفاع للمحكمة صحيفة مصرية تحوي رسمًا كاريكاتوريًا كتبت تحته: النور، وظل النور وخيال الظل.

The hight, the shadow of the light, and thd shadow of the shadow of the light.

يراد به ع.. ف... وسكرتيره س... ع... وسكرتير س... ع...!

استجوب مارشال هول س.. ع... أربع ساعات كاملة ليستخلص منه الحقيقة عن حياة القاتلة في كنف القتيل، وإليك مثلاً:

س: هل قلت للبوليس إنك حاولت أن تثنيه عن البناء بها؟

ج: نعم

س: هل قلت إنه رجل شرقي مضطرم العاطفة.

ج: نعم.

س: هل كان مولعًا بها عندئذ؟

ج: نعم كان مشغوفًا بها حقًا.

---

(١١٦) نقيب المحامين في بني سويف فيما بعد.

(١١٧) وزير المالية في الأربعينات فيما بعد.

ثم تلا "مارشال هول" خطابًا يتوسل به القتيل إليها لتقدم إلى مصر جاء فيه:... إنك تبدين لي محفوفة بهالة من الأحلام! يا شعلة حياتي، إنني أراك وعلى مفرقك إكليل وقد احتفظت به لأقدمه إليك يوم تطأ أقدامك أرض أجدادي الفاتنة...

وانتقل إلى حياتهما الزوجية فتلا كتابًا منه إلى أختها عقب الزواج جاء فيه: "لقد أخذت بسبيل تعليمها.. فلم أتناول معها أمس غذاء، ولا عشاء، وتركتها في المسرح، فلعل ذلك يلزمها أن تخضع لرغباتي.. إن على الرجل أن يتصرف مع النساء بحزم وقسوة".

وبين الدفاع كيف كان هذا الزوج المليونير يركب زوجته الترام..

وانتقل من التعذيب النفساني إلى التعذيب الجثماني فراح يسأل س... ع...

س: هل وقع في ٢١ فبراير منظر عاصف؟ أو أقم على القرآن أن يقتلها؟

ج: لا.

س: هل تعرف أنها كانت تخاف على حياتها؟

ج: لم أعرف مطلقًا.

س: هل أخذها معه على ظهر (اليخت الخاص) إلى الأقصر في ٢٣ فبراير، على مبعدة عشرة أيام من القاهرة.

ج: نعم.

س: أكان ستة من العبيد في خدمة اليخت؟

ج: نعم.

س: أتظن أنه شرع من تلك اللحظة يعاملها بقسوة؟

ج: لا أستطيع أن أقول قسوة – ولقد كان يغلظ بعض الغلظة.

س: ألم تك مدام فهمي في سنة ١٩٢٣ تغاير كل المغايرة مدام لوران سنة ١٩٢٢.

ج: ربما.

س: ألم تتحول من فتاة مرحة. باسمة الثغر، حسنة اللقيا، إلى سيدة كسيرة الفؤاد مهمومة؟

ج: كانا دائمًا على خلاف.

س: هل قالت إنك وف.. كنتما ضدها، كانت سيدة بمفردها ضد رجلين معًا؟

ج: نعم.

وحرص الدفاع على ألا يستطرد في البحث في أخلاق المجني عليه، فتلك هجمة يتصدى لها الاتهام بهجمة مضادة عن أخلاق المتهمة... ومن الحكمة السكوت..

شهد الطبيب الذي أسعف القتيل أنها ذكرت له سبب شجارهما، وأنها كانت تشكو ألامًا مبرحة فعزمت أن تجري عملية جراحية في باريس، ولم يك معهما مال، فمنعها بل جذبها بقوة وعنفها بقسوة، فكانت في فزع مستمر وأخرجت المسدس لتفرغ طلقاته، فأفرغت واحدة أطلقتها من النافذة لكنها وهي تصنع ذلك شهدته مقبلاً نحوها، فسددت إليه المسدس لتمنعه أن يهجم عليها، فلم تدر إلا وقذائفه تنطلق.. وقرر الطبيب أنها أفصحت له عما قاسته بقولها: يا سيدي لقد تزوجت منذ ستة شهور وشد ما قاسيت..

وبدأ المحلفون يستشعرون هول ما عانت. فقد كانت فيهم ثلاث نسوة.. وخلا الجو لمارشال هول وهو يترافع في عاصمة العالم الغربي (لندن) عن متهمة من مدينة النور (باريس) فلم يحسب للشرق حسابًا..

وافتتح الدفاع، في اليوم الثالث، فتحدث عن زهو خارق للعادة يتملك الشرقي إذ يجد في حوزته سيدة غربية وتحدث عن قسوة المتهم – الشرقي – إذ يتطلب من زوجته طاعته كالعبودية، ويعاملها بقسوة مستمرة حطمت أعصابها، وأضاف إنها تلقت في فندق سافوي خطابًا غفلا من التوقيع ينصحها فيه مرسله "ألا تعود إلى مصر مخافة أن تنجلي الرحلة عن حادث كسم في زهرة أو سلاح لا يرى ولا يسمع! استمري في باريس مع هؤلاء الذين يحبونك وسيحمونك".

قال الدفاع "كان يروق ذلك الزوج أن يطلق النار فوق رأسها لترويعها، ويقيم عبيدًا لمراقبتها ومنهم عبد ضخم الجثة اسمه.. كوستا Costa!!

وفي ليلة الحادث لوح لها بالمال اللازم للجراحة التي كانت بسبيلها، ثم أباه عليها لتخضع لرغبته غير الطبيعية – وفي نفس الليلة هددها بالقتل! بل أخذ بخناقها وأمسك برقبتها!... فحسبت أنه سوف يقتلها"

واستجوبت المتهمة فقررت أنه في شهر يناير أقسم على القرآن أنه قاتلها وأنها ستموت بيده وأنها كتبت إلى محاميها في باريس تقول إن ذراعيها يحملان "آثار ظرف (!) زوجها".

وقررت أنها لم تكن أطلقت قذيفة واحدة! حتى ليلة الحادثة. وأن المسدس الذي استعملته قدمه القتيل إليها مشحونًا صالحًا للانطلاق، وأنها شهدته يفرغ مسدساته يفتح الخزانة وإخراج الخرطوش، فحاولت إخراج الخرطوش بعد أن خنقها، فلم تستطع، فعالجت ذلك بتحريك المسدس في النافذة فانطلقت منه قذيفة في الفضاء، ظنت بعدها أنه لم يعد فيه قذائف قابلة للانطلاق – لكن المسدس كان من المسدسات التي تملأ فيها الماسورة من نفسها عقب انطلاق القذيفة.

وأضافت أنها لا تعرف شيئًا عن الأسلحة النارية.

سألها مارشال هول: ألم تكوني تشعرين أنك ستكونين آمنة السرب في لندن!

يريد أن يثير الاعتداد في أنفس المحلفين بالطمأنينة التي تبسطها مدينتهم للساكنين فيها

واستطردت تروي الوقائع حتى خر صريعًا فجئت إلى جواره، تقول يا عزيزي.. لا شيء.. تكلم.. كلمني..

وتولت المحامية الباريسية الشابة... "أوديت سيمون" ترجمة أقوالها إلى الإنجليزية.. وفاجأ مارشال هول الاتهام بمستندين جليلي الخطر:

الأول: برقية أبرقت بها إلى باريس في ٩ يوليو تنبئ أنها قادمة إليها.

والثاني: وصيتها لمحاميها بمصر: (أنا ماري... أتهم صراحة في حالة موتي بعنف أو بأي سبب ع... بك بأنه شارك في اختفائي! لقد أقسم على الإنجيل أو القرآن في الساعة الثالثة من مساء أمس ٢١ يناير سنة ١٩٢٣.. أنه سيثأر لنفسه غدًا أو بعد ٨ أيام أو شهر أو ثلاثة أشهر وأنني يجب أن أختفي بفعله – ولم يكن لهذا القسم مبرر من غيره أو سوء سلوك أو نزاع، إني ألتمس وأستحق العدالة لبيتي وأسرتي).

وانطلق "مارشال هول" يقول ويقول... يتطور ويتطور، حتى تدهور، إلى حيث قال "لقد ارتكبت هذه السيدة الخطيئة الكبرى وتزوجت رجلاً شرقيًا، إني أجسر على القول بأن الحضارة المصرية كانت، أو قد تكون، إحدى الحضارات القديمة العظيمة، ولكنك إذا انتزعت الغشاء الخارجي من حضارة الشرقي، تجد تحته الرجل الشرقي الحقيقي".

وراح يصف كيف دلى القتيل قاتلته بالغرور فأدخلها في "جنته الشرقية" والعبد الضخم على رأسها، والقلق يسيطر على نفسها، وهو يضيفها إلى مملكته، وإلى الحريم التركي، وتلك أشياء لا تفهمها ولا تستطيع أن تتعامل معها".

واستطرد بصوته المسرحي ونبراته التمثيلية يرد على كلمة النائب العمومي قوله إن المتهمة كان عليها أن تستعين بـ... ع... ليدفع عنها أذى القتيل، فقال بمن تستجير!! أليس س... عضو الثالوث "النور. وظل النور. وخيال الظل".

وأشار إلى العاصفة التي اجتاحت لندن في تلك الليلة الليلاء وتأثيرها في أعصاب السيدة المريضة النفس، المضطربة الحس، واستمر في فيوض التدفق البلاغي حتى وصل إلى حادث الإطلاق فمثل أروع موقف في تاريخه كمحام. ووصف القتيل – كرجل شرقي – كوحشٍ!... يهجم على سيدة ليفتك بها، ومثلها وهي تهدده بالمسدس وتصوبه تجاهه، وكيل انطلق ذلك "الشيء" الذي يكمن الفناء في أنحائه.. وفيما هو يتحدث عن انطلاق "العيار" أمسك المسدس وظل يسدده إلى صدور المحلفين حينًا، فلما انتهى من وصف القتيل عندما سقط.. أملى قليلاً.. وترك المسدس يسقط من يده على الثرى... فوق بلاط المحكمة! كما سقط على الثرى من يد موكلته فوق بلاط فندق سافوي!!

ولم يك باقيًا إلا أن يفتح الأبواب للمتهمة فيقول: افتحوا الأبواب لهذه السيدة الغريبة لتخرج، لا إلى ظلام الصحراء ولكن إلى بنتها، التي تنتظرها فاتحة ذراعيها، افتحوا الأبواب لنرجع إلى الأنوار التي تنبعث من شمس الغرب...! وأشار إلى نور السماء حيث الصحو المتدفق في قاعة المحكمة يشيع الدفء والضياء، فتكاملت بهذه الإشارات إلى النور والدفء وبالحركات والرنات المترددة من سقوط المسدس، ومن قوة ذاته وتدفق عباراته، حبكة مسرحية بلغت ذروتها، لو صنعها محام آخر لسفهه أقرانه لكنها من "مارشال هول" كانت إحدى الروائع.. ثم صاح قائلاً: إنني لا ألتمس البراءة، ولكني أطلبها من بين أيديكم..

وبرئت مرجريت فـ... بعد ستة أيام... كأنها الأيام الست التي خلقت فيها الدنيا.

قضية يارموث

في مساء ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٠ كان على ضفاف النهر زوجان يتناجيان، فبصرا في ظلمة الليل على مبعدة ٣٠ ياردة بزوجين آخرين يتجاذبان، وسمعا السيدة تقول: الرحمة..

فخليا لهما المكان وانطلقا.

وفي الغداة وجدت في محل الحادث جثة سيدة في نضارة الشباب، فأطلق البوليس ذنابيه في كل ناحية، وظهر أن القتيل مخنوقة برباط حذاء، وأنها "السيدة هود" كانت تقيم من أسبوع في مسكن السيدة "رودروم" ولم تفصح مخلفاتها عن شيء إلا أن أحد ملابسها يحمل نمرة ٥٩٩ من المغسلة.

شهدت صاحبة الدار أن ساعة يدها وسلسلتها ضائعتان وأنها شهدتها يوم الجمعة تحادث رجلاً وتناهى إلى سمعها من حديثهما صوت قبلة..

ومضت أسابيع دون معرفة الفاعل. وقيدت القضية "ضد مجهول لقتله مجهولة"..

ثم تذكرت صاحبة الدار أن خطابًا جاء القتيل من "وولوتش" فضيق البوليس نطاق حدسه، وقصد إلى مغسلة وولوتش وبدأ التوفيق يتخذ سبيله إلى تحرياته، فظهر أن ٥٩٩ نمرة ثوب للسيدة "بنت" وأنها كانت تعيش ثمة في أغسطس وأبرقت إلى زوجها فجاء لزيارتها ثم رحلت في ١٥ سبتمبر.

ومضى البوليس في تحرياته فعثر على الفتى "بنت" وأنكر "بنت" أنه رأى زوجه منذ شهر يناير منذ تناوشا لعثوره عندها على رسائل رجل آخر.

كان "بنت" بائع صحف في صباه. فصبى بقال. ولما بلغ أشده لقى ماري كلارك في السابعة عشرة من عمره، وكانت غازفة بيان تكبره بعامين، وكان يهوى الموسيقى. فبنى بها رغم معارضة أبويه.

وفي سنة ١٩٠٠ افتتح دكان بقال واحترق الدكان وصرفت له مائتا جنية قيمة التأمين.

وسافر الزوجان إلى جنوبي أفريقيا وقفلا في شهر مايو راجعين، ولكن متنازعين، فافترقا في يونيو، هي إلى وولوتش وهو إلى "بونيون عتريت" حيث عرف فتاة أظهر لها أنه غير متزوج، وظفر منها بوعد بالزواج.

وفي ١٤ سبتمبر زار زوجته وفي اليوم التالي تركت وولوتش ولم يعرف تبؤها بعد وعرف البوليس أن الفتى زار بارموت مع خطيبته قبل الحادث بنحو أسبوع، ونزلا منزلاً آخر. وأن القاتل نزل بنفس المسكن، ولكن لم يتحقق هل كان هو نفس الزائر الأول أم لا.

وشهد البعض أن شاب القاتل كان كثًا لكن شارب المتهم لم يكن كذلك، ولقد طالما أعلن "بنت" في الناس أن زوجته ماتت.

ولما فتش مسكنه عثر فيه على ساعة يد وسلسلة! وعلى شارب مستعار. قال المتهم عند القبض عليه إنه كان وقت الحادث مع رجلين فكذباه وهكذا سقط أول أدلة النفي.

وتتابعت الأدلة فظهرت صورة للقتيل وفي يدها ساعتها، وتعرف عليه رجال في عمليات العرض قائلين إنهم رأوه يوم الحادث في "يارموث" وشهد صاحب محل عمومي أنه جاء يومئذ مع القتيل إلى محلة.

وقامت الصحافة بحملة هائلة، وشاركها الجمهور، فكان البوليس ينقل بنت في شوارع "يارموث" فتحدق به مظاهرات عاصفة، وأسودت وجوه الصحف بالمقالات ضده. والشعر العدائي له. ورسمته بشارب كث لأن الشهود قالوا إن القاتل كان له شارب كث، وسارت الصحف إلى نهاية الشوط فعينت محققين لاستجواب الشهود! فنشروا استجواباتهم ثم تمادوا فعهدوا لأنفسهم بمهام البوليس السري.

وكل مارشال هول في القضية لقاء خمسين جنيهًا – أما محامي الدعوى العمومية فقد وكل بمائة جنية!..

وهي أتعاب ندر أن وصل إليها محام قبل ذلك العهد.

وشعر الناس أن مارشال هول تولى قضية خاسرة، وازداد مساعدوه إيمانًا بخسرانها كلما قلبوا صحائفها..!

حتى هو شاركهم في اليأس منها...

لكنه لم يكد يلقى موكله حتى امتلأ قلبه باليقين والأمل.

فيالها من أنفس عظيمة حقًا أنفس المحامين، تجاهد لتخترق بإخلاصها حجب الغيب وسجف الخصومات، لتهتدي إلى الحق، أو إلى ما تظنه الحق، وإنها لأقوى وأزكى وأروع حينما يعتقد صاحبها عقدة لا يشاطره إياها أحد من الناس فينقلها غليهم ويفرضها عليهم؟!

عندئذ يقف المتهم وحده وضده الدنيا... ولكن معه محاميه، وهو حسبه، ويقف المحامي وحده، وضده الدنيا... ولكن معه إيمانه وهو حسبه.

بدأ مارشال هول معركته بالهجوم العنيف الشامل على خصوم المتهم في المحكمة وخارجها بعد أن نقلت القضية من محكمة "نورفولك" إلى محكمة الجنايات الرئيسية مخافة ألا تجرى في نورفولك محاكمة عادلة.

وسلط على الصحافة التي تدخلت في القضية قبل أن يتدخل القضاء لسانًا لا يعرف الخور، فروع قومًا غير مسئولين يؤلبون الرأي العام ضد المتهم. وأشعر القضاة أنهم مثله ومثل الحقيقة والعدالة مجنى عليهم. فكسب الجولة الأولى.

وانطلق يهاجم الأدلة واحدًا واحدًا في هذا الجو المواتي من كراهة المتطفلين والمضللين.

إن هذه الأدلة لا تدل على ارتكاب موكله للجريمة وإن كانت تشير إلى أنه لا بد أن يكون هو الذي ارتكبها.

فأما الساعة والسلسلة اللتان ضبطتا عنده فليستا الساعة والسلسلة اللتين كانت تلبسهما القتيل، بل هما ساعتان وهما سلسلتان، والدليل على ذلك عين المحامي الفنان. ذي الخبرة القديمة في المجوهرات. فلقد ذهب يناقش جوهريًا قديمًا من أصدقائه فظفر عنده بخبير في التصوير يزكي نظريته في أن السلسلة في صورة القتيل سلسلة مجدولة، على حين أن السلسلة التي ضبطت لدى المتهم سلسلة ذات حلق من الطراز المهجورة.

واستجوب المصور فأجاب أن الصورة صورة سلسلة مجدولة. وأن السلسلة ذات الحلق لا ترسم على الوجه الذي رسمت به السلسلة بالصورة. وتلك جولة ثانية كسبها مارشال هول.

إلا أن واحدًا من المصورين شهد أن الرسم قد يتشابه من جراء تنفس الشخص المصور، وران الغموض على القضية، ودعا الدفاع الجوهريين والمصورين كما دعا الاتهام جوهريين ومصورين.

لكن الدليل المنتزع من هذه الواقعة أصبح في قبضة مارشال هول بعد أن كان سيفًا مصلتًا على عنق المتهم.

قالت صاحبة الدار في البوليس إن الخطاب الذي جاء السيدة "هود" من "وولوتش" كان رمادي اللون أزرق. ولكنها في الجلسة قالت إنه كان أزرق. فلما لاحظ الدفاع عليها ذلك قالت: إني لم أقل إنه كان أزرق حالكًا. فصاح في وجهها "لا تذهبي إلى هذه الصغائر معي! إن رقبة هذا الرجل تحت سيد الجلاد!!".

وراحت الشاهدة بعدئذ تؤكد أن الساعة التي في يد القتيل كانت في سلسلة ذات حلق لا سلسلة مجدولة..!! وقررت أنها كانت مخطئة فيما ذكرته قبل.

تلك إذن شاهدة الاتهام الأساسية ليست متأكدة، تقرر وتؤكد، ثم تنقض ما تقرر، أو على الأقل، تتردد!!

وهذا شاهد يقرر أنه تحقق من المتهم إذ رآه يفتل شاربه، والشارب المستعار، كالشارب المضبوط – لا ينفتل، بل إنه ليخلع إذا انفتل!

وهذه شهادات آخر، صغائر، لا تتطابق.

وهذا عود إلى الصحافة جديد!.. فلقد شهدت إحدى الشاهدات أنها سمعت المتهم يتهدد زوجته، فسلقها الدفاع بألسنة حداد إذ أفضت بتصريحاتها إلى الصحف فلم تلبث أن قالت إن المراسل أضاف إلى الحديث كثيرًا لم تقله!!

وتلا "مارشال هول" ما نشر في الصحيفة عنها فوافقته المحكمة على استهجان مسلكها.

واستهل في اليوم الخامس دفاعه بقوله: "إن أكبر عقبة صادفت الدفاع في هذه الدعوى هي صحافة المملكة المتحدة فقد كان عمل بعض منها ظلمًا وفضيحة.. إن من آثار ذلك أن كل تحقيق لصالح المتهم أمسى خليقًا أن يدور في ظلام التكتيم".

ثم فاجأ المحكمة والاتهام بقوله: "ولسوف أقدم لكم شاهدًا جليلاً مبرأ من الغايات يقطع بأنه كان من المستحيل على المتهم أن يقتل في يوم السبت لأنه كان معه في السابعة مساء يوم السبت، وآخر قطار يقوم إلى يارموت يقوم في الخامسة".

وسمعت المحكمة الشاهد.

وفي المساء طفق يترافع ويترافع فحمل على الصحف التي اتصلت بالشهود، لإغرائهم بالشهادة أن المتهم ارتكب الجريمة.. وقال "لقد كانت هذه الصحف كالغول يشرب من دماء ضحاياه". واستمر يترافع إلى الغداة، فقال إن الاحتفاظ بالساعة والسلسلة يكون عين الجنون لو كانتا للقتيل! وإن المتهم عندئذ لجدير بمستشفى المجاذيب! فإذا لم تكونا لها فإن الدليل الخطير ينهار، وأطال في هذه المسألة وجرح الشهود، وبذل في اليوم السادس مجهودًا جبارًا.

وانحط في كرسيه عقب المرافعة مهدودًا محطمًا.

وحكم على موكله بالإعدام فلم يكف عن السعي لإلغاء الحكم.. لكن الله أبى..

obeikandl.com

روبرت وود

وجدت "إميلي ديموك" صباح يوم قتيلاً في فراشها بالمنزل رقم ٢٩ طريق سان بول، وشهد الشهود على فتى كان معها لم يعرف ليلتئذ، كما دلوا على رجال آخرين كانوا يغشون مسكنها ولقى البوليس عندها بطاقة صغيرة عليها بعض كلمات فنشر صورتها الزنكوغرافية مناشدًا الجمهور أن يهديه إلى كاتبها.

فلم تكد الفتاة "روبي ينج" تلقى حبيبها الرسام "روبرت وود" حتى قالت: لقد كشفتك – فهذا الخط خطك!..

وراحا يدبران طريقة للنجاة، فدبرا ما شاء لهما الهوى والهلع أن يدبراه، غير أن النشر هد أعصاب الفتاة، وكان وود يقول لها: إن كلمتينا سيواجهان كلام الدنيا كلها.

لم تقو "روبي" على مشاطرته في مؤامرته: وبدأ سرها يخرج إلى الدنيا بأسرها، إذ استشارت صديقًا نصحها بتبليغ البوليس فبسطت سر الفتى كله على مائدة مفتش البوليس.

ولما ألقي القبض عليه راح لادافع عن نفسه بما دبراه، وهو عند البوليس بتمامه! فجعل بنفسه دليل نفسه للإثبات عليه!

شهد شاهد أنه بصر لي شارع "سان بول" في الخامسة من صباح يوم الحادث بشخص عريض المنكبين يبرح المنزل ٢٩ شارع سان بول وأن نور الكهرباء أضاء وجهه وأنه كان يرتدي معطفًا "غامق" اللون وماده في العرض من مشيته: لهو كان يمشي ويده اليسرى في معطفه وكتفه اليمنى مرفوعة إلى الأمام.

وأيدت نسبة تلك المشية إليه الفتاة المخلصة روبي ينج، وكان الفنان الموهوب يملأ وقته في السجن وفي الجلسة برسم كل شيء حتى القاضي.

بل إنه ليرسم محاميًا عنه جلس إلى مفتش البوليس يلعبان الورق، وروحه على المائدة لتكون كسبًا لمن يكسب، في حين أن الحب أي "روبي" يهمس في أذن مفتش البوليس بأسرار الورق!...

أما الدفاع فكانت له مخارجه وتوفيقاته.

كانت ليلة الحادث مظلمة وكان صباحها معتمًا!

أما المصباح الذي أشار إليه الشاهد فقد خبا نوره، بحسب شهادة شركة الإنارة قبل الميعاد الذي حدده الشاهد بربع ساعة.

وأما تدبير الدفاع الذي تورط فيه المتهم فمن المحتمل ألا يكون خشية الإدانة ولكن خشية الفضيحة!!

واستجوب الشهود استجوابًا عنيفًا، فهذا شاهد الإثبات الأول يثب إلى خيال "مارشال هول" أنه قد يكون القاتل! وتسيطر الشبهة على الاستجواب، فيضطرب الشاهد أيما اضطراب، وتبلغ حماسة الدفاع قمتها في كل لفتة وحركة!.. فإذا ضحك أحد النظارة صاح "مارشال" "إني ألتمس منكم ألا تضحكوا فحياة إنسان هي الآن في الميزان".

قرر الحوذي في الجلسة أنه لقى المتهم قبل الميعاد الذي قرره في البوليس! ثم ذكر أنه لم يرد ما أسنده إليه البوليس عن المشية الخاصة. وأضاف أن الرجل الذي رآه كان عريض المنكبين في حين أن المتهم ضامر.

أما استجواب الدفاع للفتاة العاشقة فكان على نقيض ما جرى عليه المحامون في البوليس وما توقعه الحاضرون في الجلسة. إذ كان استجوابًا رقيقًا... رقيقًا، وبهذا أدت أكبر الخدمات للمتهم، وكان مارشال يعتبر موقفه من استجوابها من أحسن توفيقاته.

قسا على إحدى الشاهدات ذوات الخلق المجرح. فقالت له: إنك تريد أن "تجعلني" نسيئة الخلق! فرشقها المحامي السريع الخاطر بقوله: معاذ الله أن "أصنع" ذلك!!

تساءل "مارشال هول" أولاً عن الباعث! فإذا لم يعرف الباعث اضطرب الفكر في تصوير الجريمة ومعرفة المجرم! ثم انتقل إلى ضمائر المحلفين في عشرين دقيقة عظيمة يحملهم مسئولية الحكم أمام الله وأمام ضمائرهم ويقول فيها يقول "وقد تظنون أني قسوت على هؤلاء الشهود في الاستجواب، فمعذرة إذا بدرت القسوة مني. لقد روعني مصير روح هو الآن في الميزان. إن الشهود قد يخسرون القليل على يدي، أما المتهم فمعرض لخسارة الكثير على أيديكم! لقد كانت كتفي تنوء بهذه الأمانة الهائلة لكنني الآن قد ألقيتها على عواتقكم".

وقد شاهدا خرج يوم الحادث في الخامسة إلا خمس دقائق من ٢٦ شارع سان بول، عريض المنكبين، فشهد أنه رأى يوم الحادث حوذيًا، وأنه يدفع يده وصدره للأمام كتمرين رياضي إذ يبرح داره إلى عمله.

وشهد شاهد آخر أنه نادى الشاهد السابق يوم الحادث قبل هذا الميعاد، وأيد زملاء المتهم أقواله، وأطروا شمائله، وأجمعوا أن ليس له مشية خاصة كما زعم البوليس. ولما استجوبه "مارشال هول" أظهر فنانًا، أرق بنانًا، من أن تسفك الدم يداه.. ولغير أسباب!..

وراح يبدئ ويعيد في عدم وجود الباعث، وأن خوفه على سمعته من أن تلوث بمعرفته للمرأة القتيل، هو الذي جره إلى تلفيق دفاع يحول دون القذف بذاته في المهالك، وتكلم عن شهادة الحوذي التي ينقضها بيان الشركة، وبيان الطبيعة وشهادات الشهود.

ثم صاح في المحلفين "لو طلب إلى واحد منكم أن يقتل حيوانًا هزيلاً يعالج سكرات الموت، وكانت العمدة للفصل في قتله أو حياته شهادة هذا الحوذي فهل يقبل؟!... إنني لا أتصور أنكم تقتلون هذا الفتى من أجل هذا...، فلا ألتمس البراءة ولكني أطلبها.. وإذا هدتكم العناية السماوية فشعرتم بأنه لا يمكن قبول ما يزعمه الاتهام فإن من واجبكم لا من فضلكم، أن تقرروا أنه لم يقتل إملي ديموك".

وانسحب المحلفون ربع ساعة ليبرءوه.

وأطل المتهم على آلاف الجماهير كانت تنتظر خارج المحكمة لتهتف بحياة محاميه.

أما "روبي ينج" فخرجت في سراويل رجل، لأن الجمهور كان في انتظارها.

obeikandl.com